
٢٢
الروائع
المعلم بطرس البستاني
خطابان :
تعليم النساء
آداب العرب
المطبعة الكاثوليكية – بيروت

المعلم بطرس البستاني

تعليم النساء

آداب العرب

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد إفرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كليّة القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية . بيروت

١٩٣٩

المعلم بطرس البستاني

١٨١٩ ـ ١٨٨٣م

خدمَ البلادَ وليس اشرف عنده   من أن يسمى خادماً لبلاده

(الشيخ خليل اليازجي)

أوّل من أسّس مدرسة وطنية عاليـة ، أوّل من ألّف قاموساً عربيا عصريًّا مطوّلًا ، أوّل من انشأ مجلّة راقية ، أوّل من ابتـدأ بمشروع دائرة معارف باللغة العربيـة ، اول من نادى بتعليم النساء في الشرق . هو المعلم بطرس البستاني ، ركن النهضة الادبية الثابت ، ومحور الحركة الوطنية في عصره ؛ مَن صرف حياته كلها في سبيل العلم والوطن ، وترك الآثار العديدة من ادبية واجتماعية ، واحدث التأثير البليغ في ابناء قومـه خاصة ، وفي الادب العربي عامة . فكيف انقضت تلك الحياة ؟ وما هي هذه الآثار ؟ وما هو مبلغ ذاك التأثير ؟

حياته

اصل أسرته

في اواسط القرن السادس عشر ، كان يعيش في قرية بقرقاشه الصغيرة الواقعة في جبة بشرّاي من لبنان الجنوبي ، أسرة يشتغل افرادها بالزراعة ، وكان للاسرة بستان عامر اشتهر بين ارزاق القرية ، وشهر صاحبه ايضاً

البستان ، ابي محفوظ ، فغادر قريته سنة ١٥٦٠ ، مع اخوتـه الثلاثة واولاده محفوظ ، وعبد العزيز ، وناصر ، قاصدين الى دير القمر ، وهي اذ ذاك كبرى مدن الجبل .

وفي الطريق تخلّف اخوة ابي محفوظ ، فأقاموا في قرية غادير من اعمال كسروان . وامتدّ نسلهم فيما بعد الى صربا ، وساحل بيروت . وكان على الاب ان يفارق ابنه محفوظاً ايضاً ، الذي تركه ورحل الى ضهر صفرا ، من بلاد عكار ، ولا يزال نسله هناك يُعرف الى الآن ببيت محفوظ .

اما ابو محفوظ وولداه الآخران فوصلوا الى دير القمر واقاموا فيها . وتكاثر نسلهم ، فهبط بعضهم بعيالهم في اوائل القرن الثامن عشر الى مزرعة «الدلهميّة» من اقليم الخرّوب . ثم انتقلوا الى مزرعة اخرى من الاقليم نفسه ، اسمها الدبيّة . فتكاثروا فيها وعمروها حتى اصبحت اليوم قرية كبيرة اكثر سكانها من آل البستاني . وفيها وُلد من يهمّنا في هذا الدرس .

فتوّته (١٨١٩—١٨٤٠)

نشأته : في الدبيّة (١٨١٩—١٨٣٠)

بطرس بن بولس ، بن عبد الله ، بن كرم ، بن شديد ، ابن ابي شديد ، بن محفوظ ، ابن ابي محفوظ البستاني ، وُلد في الدبيّة ، في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٩ .

وما ترعرع حتى أُرسل الى مدرسة القرية ، الى واحدة من مدارس « تحت السنديانة » حيث كان خوارنة الضيع يعلّمون صبيان رعاياهم ، ببساطة معارفهم وقوّة مثلهم ، مبادئ العربية والسريانية ، مع خدمة القدّاس ، واصول الفضائل المسيحية السامية . في تلك المدرسة ، كان الخوري

ميخائيل البستاني يهذّب صغار الضيعة . فلاحظ ذكاء نادرًا في اثنين من تلامذته هما مترجمنا الصغير ، وترْبــه شبلي ابن الخوري يوسف البستاني (الذي صار فيما بعد المطران بطرس البستاني) ، فاخبر بهما المطران عبدالله البستاني ، رئيس اساقفة صور وصيدا ، الذي كان مقيماً اذ ذاك في بيت الدين ، عاصمة الامير بشير . فاهتمّ المطران بالامر واستقدمهما الى كرسيّه . وبعد ان تحقق ذكاءهما ، ارسلهما الى عين ورقة ، كبرى مدارس ذاك العهد .

التلمذة والتعلم : في عين ورقة (١٨٣٠ — ١٨٤٠)

اكبّ صاحب الترجمة مع رفيقه على الدرس ، بجـدّ واجتهاد ، حتى حصّلا كل ما كان يُلقى في فنون الأَدب العربي المختلفة من صرف ونحو وبيان وعروض ولغة . واتقنا التاريخ والجغرافيــة ، والحساب . ودرسا اللغات السريانية ، واللاتينية ، والايطــالية وحصّــلا المنطق والفلسفة ، واللاهوت الادبي والنظري ، واصول الحقّ القانوني .

واذ نجحا في جميع علوم المدرسة ، ولم يبقَ في برنامجها مـــا يتعلّمانه ، شاء بطريرك الطائفة المارونيــة ان يُرسلهما الى روميــة للتضلّع من العلوم الدينية . وكانت والدة المعلّم بطرس قد ترمّلت عن ثلاثة بنين ، فمانعت في ارسال ولدها لاحتياجها اليه . فسافر رفيقه ، وبقي هو يعلّم حيث تعلّم ، ويجتهد في تحصيل بعض مبادئ اللغة الانكليزية ، ويهتمّ بقضــاء بعض مصالح عامّة كان البطريرك ينفذه فيها الى الجهات . حتى كانت سنة ١٨٤٠ ، فترك المدرسة ، وهبط بيروت .

في بيروت (١٨٤٠—١٨٨٣)

اتصاله بالانكليز ، ثم بالاميركان

وكانت سنة اضطراب في جميع انحاء الجبل في اواخر عهد الاحتلال

المصري ، وقد ارسلت الدول الاوربية المتحالفة مع تركيـة : انكلترة ، والنمسة ، وبروسية ، مراكبها ، في شهر ايلول ، الى سواحل لبنان لتُجبر ابراهيم باشا على الخروج . وكان الانكليز ، وهم اصحاب السهم الاعلى في تلك العمليّة ، بحاجة الى ترجمان ، فتعرّف اليهم المعلم بطرس فرحّبوا بهِ .

ثم تعرّف الى بعض مُرسَلي الاميركان ، من دعاة المذهب البروتستانتي ، وكانوا قد اقـاموا في بيروت لنشر مذهبهم . فتعدّدت علاقاتـه معهم ، وبواسطتهم كانت تزداد معارفه بالانكليزية . ولم يلبث ان اتّفق وايام على ان يعلمهم العربية ويعرّب لهم الكتب . ثم رسخت المودّة بينه وبين بعض افرادهم ، لاسيما الدكتور كرنيليوس ڤانـديك الذي ظلّ اخلص اصدقائه . فاستدرجوه الى مذهبهم البروتستانتي .

عامان في عبيه (١٨٤٦ – ١٨٤٨)

وفي سنة ١٨٤٦ ، رأى الدكتور كرنيليوس ڤانديك تأسيس مدرسة في عبيه ، فاستعان بالمعلم بطرس في انشائها . فقام بذلك ، وظلّ يعلم فيها سنتين كاملتين ألف في خلالها باكورة اعماله ، وهي « كشف الحجاب في علم الحساب » و « بلوغ الارب في نحو العرب » . وفي عبيه وُلد بكره المعلم سليم البستاني الذي اصبح فيما بعد ساعده الأيمن في جميع مشاريعه .

قبل سنة ١٨٦٠ : الجمعيّات – الخطب – ترجمة التوراة

وما ان عاد الى بيروت سنة ١٨٤٨ ، حتى تولّى وظيفة الترجمـة في قنصلية اميركة ولم يتركها الّا سنة ١٨٦٢ ، اذ تنازل عنها لابنه سليم .

وتعدّدت اشغاله في الجمعيّات المختلفة من دينيـة وخيرية وعلمية ادبيـة ؛ وفي تعريب الرسائل الدينية والتبشيريـة ، والقاء الخطب ،

وتأليف الكتب والمحاضرات . وهو مع ذلك لا يألو جهدًا في تحصيل المعارف ، فدرس اللغتين اليونانية والعبرانية ، وألمَّ بالكثير من العلوم العصرية على مختلف انواعها . وكان اعظم ما قام به من الاعمال في هذه الحقبة مساعدة الدكتور عالي سميث في ترجمة اكثر اسفار الكتاب المقدّس .

بعد سنة ١٨٦٠ : المدرسة – الصحف – التآليف – الجمعيات

وكانت تلك المجازر الاهلية المؤلمة التي سبَّبتها الحزازات والتعصّبات المنفوثة في صدور اللبنانيين . فهبّ المعلم بطرس يعمل على تضميد الجراح ، وتأليف القلوب ، بخطاباته وانذاراته العديدة التي كان ينشرها بصحيفته الوطنية السياسية التي انشأها لهذه الغاية وسمّاها «نفير سورية»

ثم رأى ان القلوب لا تتفق الّا اذا اعتادت الاتحاد والوئام صغيرةً ، فأسس «المدرسة الوطنية» الشهيرة ، وسنتكلم عنها . وبعدها انصرف الى التأليف ، وانشاء المشاريع الوطنية ، وتاسيس الصحف ، وتعزيز الجمعيّات .

وكانت سنوه الاخيرة اوفر اقسام حياته خصباً في الاعمال الادبية ، ففيها ظهرت اعظم مؤلفاته كمحيط المحيط ، وقطر المحيط ، ودائرة المعارف ، واكمل مقالاته وابحاثه في صحفه ، ومواقفه الخطابية ، ومواعظه ، ورسائله المتعدّدة .

وفاته (١ ايار ١٨٨٣)

وفي مساء اول ايار سنة ١٨٨٣ ، بينما كان بين الكتب والمحابر ، يشتغل كعادته في اعداد ما يظهر في اليوم التالي ، فاجأته نوبة في القلب لم تمهله الّا الوقت القليل . فمات «شهيد العلم» ، وقد هزّ منعاه البلاد ، وحصل له مناحة عظيمة حضرها كبراء الناس على اختلاف الطبقات من ذوي

خطط ومناصب ، واولي علم وفضل ، وامراء وعلماء وسراة ووجهاء ، ومشوا في جنازته التي دار من حواليها وتقدمها وتأخرها آلاف من الخلق وطنيين واجنبيين. »[1] ودفن في المقبرة الانجيلية على طريق الشام.

رثاؤه

وقد أبّنه ورثاه كثير من الخطباء والشعراء حفظ التاريخ اسماء ٣٦ منهم، أشهرهم صديقه الحميم الدكتور ڤانديك، واديب اسحق ، والشيخ خليل اليازجي ، والشيخ ابراهيم الحوراني ، اما الجرائد والمجلّات المنتشرة في جميع انحاء العالم العربي «فملأت اعمدتها رثاء ، وسودت صفحاتها حزناً »[2]

ذكرى مرور مئة سنة على ميلاده

وكان من نصيب المعلّم بطرس ان يكون اول نابغ شرقي اقيمت له حفلة تكريمية بمناسبة احدى ذكرياته. وكان المنبه الى وجوب اقامة هذه الحفلة جرجي نقولا باز، مؤرخ الشهيرين والشهيرات من بني قومنا، فكتب مقالًا بهذا المعنى في جريدة « لسان الحال » في اواخر تشرين الاول سنة ١٩١٩ فارتاح الناس الى تلك الفكرة ، ولبى الدعوة الجمّ الغفير من حملة الاقلام في العالم العربي . فأقيمت الحفلة مساء الجمعة في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩١٩ ، في نادي المدرسة الكلية الاميركية ، واشترك فيها « ٦٥ خطيباً بين عالم ، وكاتب ، وشاعر ، ومهندس ، وصحافي ، ومحامي ، وطبيب ، وتسع من السيدات الاديبات . . وهكذا فقد اجتمع علماء وادباء القرن العشرين يكرمون ويعظمون نابغة القرن التاسع عشر. »[3]

---

١) المقتطف (٨ [١٨٨٣] ٦)

٢) جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج ٢ ص ٣١

٣) لسان الحال : العدد ٧٩٥٤ ، في ٢٧ كانون الاول ١٩١٩

اخلاقه وصفاته

كان المعلم بطرس ربعةً ممتلئ الجسم ، ذا بنية قويّة ساعـدته على العمل المتواصل. وكان يبدو دائمًا رزينًا مفكرًا مهتمًّا بتحسين مشاريعـه الحاضرة ، وبخلق غيرها من المؤسسات الجديدة ، غير هيّاب معاكسات الظروف ، وانصراف اهل الشرق ، ولاسيا في ذاك العصر ، عن مطالعات الصحف ، والاكتراث لمولّدات العقل. حتى اذا اقرّ القيام بامرٍ ما وطنيًّا كان او علميًّا ، اكبّ عليه بجملته يصرف في اتمامه ايّامه ولياليه حتى يفرغ منه. وربّما شرع في عدّة اعمال وتآليف معًا فيسوقها جملةً مقسّمًا وقته بينها ، متناولًا كلّ نوع في ساعته ، منتقلًا من فرع الى آخر بسهولة فائقة. يقرن الى ذالك مقدرةً غريبة على الثبات ، وجلـدًا عجيبًا على مداومـة الشغل العقلي ، لا يأخذه ملل ، ولا يضعف عزيمته فتور . حتى ان احد فـلاسفة عصره من الغربيّين سمّاه « الجبّار » دلالةً على تلـك الموهبة في الاقـدام والثبات وهما صفتان نادرتان ، لسوء الحظ ، في شرقنا العزيز. وسنرى عند ذكر آثاره انه نال ذاك اللقب عن جدارة واستحقـاق ، وانه كان في كل اعماله صاحبَ إقدام ، وابتكار ، وثبات . وقد روى جرجي زيـدان ، بنسبة هذه الصفة ، ان ذوي المعلم بطرس كانوا ، اذا افتقـدوه ليلًا او نهارًا ، وجدوه في مكتبه بين كتبه واوراقه [1]

ومن كانت هذه رغبته في العلم وفي تعزيزه بين بني قومه ، لا عجب ان رأيناه يضحّي كل شيء في سبيله ، باذلًا بسخاء على المشاريع الوطنيـة العامة ، منصرفًا الى البساطة في مظهره وسائر طرق معيشته ، مجتهدًا في

---

[1] جرجي زيدان : ك. م. ص : ٣٠

صرف جميع مواطنيه الى تلك الخصال الحميدة .

وقد ورث عن اجداده اللبنانيين ، مع حبّ البساطـة في كل شيء ، التواضع في الاستشارة والاستنصاح ، وسلامـة النيّة ، والاخـلاص في المعاملات . فكان مفتوح القلب ، صادق العاطفة ، ليّن العريكة ، واسع الصدر ، خالص المودّة ، حتى ضرب المثل بصداقته للدكتور ڤانديك . واذ مات المعلّم بطرس ، وقف الدكتور مؤبّناً في الكنيسة ؛ فقال ، وقد غلبه البكاء :

« اني لمظلوم بوقوفي هنا اليوم خطيباً . لان المقام الذي ارغبه ، والذي يليق بي ، هو وسطكم ابكي وانوح على اخي وحبيبي الذي خُطف من بيننا خطفاً ، معلمي واستاذي ورفيقي . فكم من الليالي احييناها معاً في الدروس والمطالعة والتأليف ، وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والاغراض . فكيف اقف فوق جثته خطيباً ، ولا اركع بجانبه حزيناً كئيباً . » (١

وكان محبّاً لجميع اهل وطنه ، على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم ، لا يفتأ يمحضهم النصائح والمشورات باخلاص . كل ذلك باسلوب لطيف ، وحديث عذب يرضي جليسه ايّاً كان ، سواء الفتيان والشيوخ ، الفتيات والعجائز ، الجهّال والعلماء ، حتى يخرج من عنده وقد حفظ له من الاحترام اصفاه ، ومن الثقة اخلصها . وكان من نتيجة ذلك انه نال في عيون القوم ، من اوليائهم حتى عامّتهم ، مقاماً عالياً جعل كلمته مسموعة ، واشارته متبوعة . وهو ما ساعده كثيراً في اقرار مآتيه ، وتوطيد مشاريعه ، كما نرى عند الكلام عن تأثيره .

---

١) دائرة المعارف ، الجزء السابع ، ص : ٥٩٣

آثاره

مشاريعه الوطنية والاجتماعية

« حب الوطن من الايمان ! » . هذا ما كتبه المعلم بطرس شعارًا لمجلته « الجنان » ! وهذا ما كان شعار حياته كلها ! فانه لم يأتِ عملًا ، ولم يقم بمشروع ، ولم يؤلف كتاباً الّا كانت غايته افادة بني قومه وتثقيف عقولهم ، والعمل على تحسين حالتهم اجتماعيًا وادبيًا . فكان يعضد المؤسسات الخيرية ، والجمعيات العلمية ، بماله ، ولسانه ، وقلمه .

الجمعيات الخيرية والعلمية

ونحن اذا القينا نظرة على حياته الاجتماعية واعماله المختلفة ، رأيناه رئيساً او عضوًا عاملًا في اكثر الجمعيَّات والمؤسسات التي عُرفت في بلادنا على عهده . وكي لا يطول بنا الكلام ، نذكر انه كان عضوًا في عمدة الجمعية السورية الاولى المنشأة في بيروت بسعي مرسلي الاميركان سنة ١٨٤٧ فكتب وقائعها ، ونظم اشغالها ، ونشر مجموعة اعمالها سنة ١٨٥٢ ، وهي آخر سنواتها . فخلفتها الجمعية السورية الثانية او الجمعية العلمية السورية التي تنظمت رسميًا سنة ١٨٦٨ . فكان عضوًا فيها ايضاً . وكان عضوًا فخريًا في المجمع العلمي الشرقي ، آخذًا بمراسلة الكثيرين ، من علماء الشرق والغرب ، في الشؤون العلمية .

المدرسة الوطنية (١٨٦٣)

هي افضل مؤسسات المعلم بطرس الوطنية ، واخاص مآتيه في سبيل اتحاد ابناء بلاده . فانه شاهد ما أدّت اليه المنازعات والمشاحنات بين الطوائف المختلفة من مجازر سنة الستين ، فابتدأ بنشر ندائه الحارّ في «نفير

سورية » . ولكنه ادرك بعد ذاك انه من الواجب الابتداء بزرع بذور المحبة والوئام في افئدة صغيرة طاهرة ، في افئدة الاطفال ، فتنمو بنمائها ، ويجني المستقبل ثمارها اليانعة . فأسس سنة ١٨٦٣ مدرسته الوطنية ، وهي في طليعة المدارس العالية في لبنان وسورية . وقبل فيها الطلبة من جميع الطوائف والمذاهب ، فتقاطروا اليها من كل الجهات . فكان يدرس فيها ابناء سورية ولبنان الى جنب ابناء مصر ، والاستانة ، واليونان ، والعراق ، والعجم . فيتعلمون اللغات العربية والانكليزية والافرنسية على مشاهير ذاك العصر[1] ، وكان المعلم بطرس يتولى رئاستها بجزم وبعد نظر ، ويعلم فيها صفًا باللغة الانكليزية ، ويخطب في التلاميذ مرتين في الاسبوع يحثهم على التقوى والفضيلة ومكارم الاخلاق . وكان نهار الآحاد والاعياد يُرسل كل فئة من التلامذة النصارى مع معلم الى كنيسة طائفتها . فنالت المدرسة نجاحاً باهرًا واشتهر العدد الكبير من تلامذتها في الادب العربي ، واحراز المناصب العالية في الإدارة والسياسة . وقد كافأته الدولة العثمانية بوسام على انشائها ، وكان الولاة يزورونها مرات شاكرين مشجِّعين .

تآليفه

وقد خدم المعلم بطرس بلاده خصوصاً بتآليفه العديدة في الفنون المختلفة . ونحن ، كي يسهل علينا درسها ، نقسمها الى قسمين نتكلم في الاول عن الصحف التي انشأها وآزرها ، وفي الثاني عن الكتب ، من معرب ومؤلف ، وعن الخطب ، والنشرات .

---

١) نشر الدكتور شاكر الخوري ، وهو من تلامذتها ، جدولًا باسماء معلميها في عهده . فليطلبه من شاء في « مجمع المسرات » ص : ١١٥

الصحف

نفير سورية

جريدة صغيرة ذات صفحتين نشرها بعد مذابح سنة ١٨٦٠ ، جاعلًا اياها على شكل رسائل وطنية دعا بها ابناء البلاد الى الاتحاد والوئام . حتى اذا استتبّ الامن اوقف نشرها . وقد بلغت اعدادها الثلاثة عشر كان يسمّيها « بالنفير الاول » و « النفير الثاني » بدلًا من « العدد الاول » . . . ويرى المطالع فقرة من واحد منها في تاريخ الصحافة العربية للفيكونت دي طرّازي (١ تدلّ على رغبة شديدة في بثّ روح الاتفاق مع طول باع في الانشاء واساليب الكلام .

الجنان

مجلة سياسية علمية ادبية تاريخية نصف شهرية في ٣٢ صفحة كبيرة على عمودين اصدرها في اول كانون الثاني ١٨٧٠ ، وجعل شعارها كما قدّمنا « حبّ الوطن من الايمان » وهي اول صحيفة عربية حملت شعارًا خاصًّا . وما عتمت ان انتشرت انتشارًا واسعًا ، وكان يكتب فيها كثير من نوابغ القرن التاسع عشر المشاهير . اما موضوعاتها فيكفي المرء ان يلقي نظرة على احد المجلّدات حتى يتحقق تنوّعها ودقّتها . وكان المعلم سليم ابن المترجَم يكتب اكثر مقالاتها . وينشر في آخر كل عدد منها قسمًا من رواية متسلسلة وطنية . ولم تكن تخلو ، بعد المقالات الرزينة ، من الفكاهات والملح والنوادر شأن المجلّات الراقية

الجنّة

صحيفة سياسية تجارية ادبية ، انشأها بمعاونة ابنه سليم في ١١ حزيران ١٨٧٠ ، صدرت في الشهر الاول من عمرها ، مرّة في الاسبوع ، ثم مرّتين (٢ وعند وفاة المعلّم بطرس انتقل امتياز الصحيفتين الى ولده سليم . وعند وفاة سليم سنة ١٨٨٤ ، انتقل الامتياز الى اخيه نجيب فاصدرها سنتين . ثم اشتدّ الضغط على المطبوعات فأجبر على ان يحجبهما ، فأسف محبّو الادب لهذه الخسارة

---

١) الفيكونت دي طرّازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول ، ص : ٦٤

٢) راجع دي طرّازي : ك . م . الجزء ٢ ، ص : ١٠ وفيها وصف للجنّة

الجنة

كان المعلّم سليم يفكّر دائما باصدار جريدة يومية وما زال يلح على ابيه في ذلك حتى اصدرا الجنينة عام ١٨٧١ ، سياسية تجارية . فكانت تصدر اربع مرّات في الاسبوع وكانت الجنة تصدر مرّتين ، فتؤلّفان مجموعتَين جريدةً يومية . ولكن الجنينة لم تعش الا اربع سنوات ، فاحتجبت سنة ١٨٧٥ اوان تفشّي الهواء الاصفر في بيروت

الكتب

ترجمة التوراة

للمعلم بطرس آثار اخلاقية ودينية عديدة . على ان اشهرها واجدرها بالذكر ترجمة التوراة التي باشرها مع الدكتور سميث سنة ١٨٤٨ ، واتمها الدكتور ڤانديك ، وهي الترجمة المعروفة بالاميركانية . وكان له النصيب الاوفر في شغل الترجمة كما ذكر جرجي زيدان [1] .

امّا في غير الدينيّات فقد ترك الكتب العديدة النفيسة ، وكان همّه في التأليف ان يسهّل على مواطنيه علوم العصر والاستفادة منها باقل ما يمكن من الوقت . وهذا الهمّ ادّى به الى ابتكار تلك الطرق السهلة ، والاساليب التي كانت في زمنه اكثر من عصرية ، ولم تفقد كثيراً من جدّتها في عصرنا هذا ، سواء كان ذلك في النحو او اللغة او الرياضيات او غير ذلك :

الصرف والنحو

١ — مصباح الطالب في بحث المطالب

شرح وحواشٍ وزيادات واصلاحات علّقها على كتاب « بحث المطالب »

---

١) تاريخ الآداب العربية ، ج ٤ ، ص : ٢٢٤ ، وراجع المقتطف (٨[١٨٨٣]٢)

المشهور في الصرف والنحو للمطران جرمانوس فرحات. طبع في بيروت ١٨٥٤، في ٤١٦ صفحة متوسطة

ولم يلبث ان شاهد العلوم تتقدّم في العصر ضاق معه وقت الطلّاب عن درس مطوّلات قواعد اللغة، فادرك بنظره الثاقب، الذي كان يرمي دائماً الى ابعد من عصره، انه «صار من مقتضيات الاحوال وواجباته تسهيل الطرق والوسائط وتقريبها ما امكن لكي يقدر على اقناعهم بالاخذ فيها واستخدامها، ويمكنهم من الوصول الى المقاصد باقرب وقت وأيسر مرام»[1] فوضع لهم كتاباً مختصراً سمّاه :

ب — مفتاح المصباح

طُبع للمرة الثانية في بيروت ١٨٦٨، في ٣٦٠ صفحة صغيرة

ج — بلوغ الارب في نحو العرب. لا يزال مخطوطاً

اللغة

ا — محيط المحيط

هو اشهر مؤلفات المعلم بطرس واول قاموس عصري في اللغة العربية. وسيظلّ طويلًا في طليعة المؤلفات اللغوية طبعه في مجلّدين كبيرين في بيروت ١٨٧٠، فرفع منه نسخة الى السلطان، وثانية الى الصدارة العظمى، وثالثة الى نظارة المعارف، فكافأه السلطان بالجائزة الاولى التي يُعطاها المؤلفون، وهي الوسام المجيدي الثالث مع ٢٥٠ ليرة مجيدية. وقد اخذه عن اشهر قدماء اللغويين كالفيروزبادي والجوهري. ولكنه يمتاز عن جميع القواميس القديمة باشياء منها : ١ً — ترتيبه على حروف المعجم ترتيباً عقلياً باعتبار الحرف الاول من الثلاثي المجرّد. ٢ً — جمعه لكثير من اصطلاحات العلوم والفنون، على اختلاف انواعها، الداخلة في اللغة مع المعرّبات. ٣ — شرحه اصول بعض الالفاظ الاعجمية. ٤ً — جمعه لكثير من الالفاظ والمصطلحات العامّية وتفسيرها. ٥ً — سهولة عبارته. كل هذه الميزات

---

[1] آخر مقدّمة مفتاح المصباح، الطبعة الثانية

كانت تجعل القاموس من المعجزات في زمن صدوره. ولكن سوق المؤلفات الكبيرة عندنا في كساد، لسوء حظّ البلاد العربية. ولهذا لم يُطبع محيط المحيط الّا مرّةً واحدة، فسبقه العصر، واصبحت موادّه، كموادّ كل قاموس عربي، قاصرة عن ان تفي بحاجاتنا الحاضرة المتعدّدة كل يوم. وهو ما يجعلنا ننتظر بفروغ صبر ظهور قاموس عصري يضيف الى المفردات القديمة جميع المصطلحات المستحدثة.

ب — قطر المحيط

مختصر السابق طُبع في بيروت، في مجلدين ايضاً بقطع وسط، سنة ١٨٧٠

ج — آداب العرب

خطاب مطوّل القاه في ١٥ شباط سنة ١٨٥٩، وقد حوى كثيرًا من الملاحظات الدقيقة في اسباب انحطاط الآداب، وحالتها على عهد الخطيب، مع النظر الى مستقبلها مماً دفعنا الى نشر معظمه في آخر هذا الجزء ومنه يتّضح ما كان عليه المعلم بطرس من دقّة بصر وبُعد نظر في الامور

د — شرح ديوان المتنبي. طُبع في بيروت سنة ١٨٦٠

الرياضيات

كان شأنه في العلوم الرياضية شأنه في ما تقدّم من الرغبة في تسهيل سبل المعارف لبني قومه. فألّف فيها اولًا:

ا — كشف الحجاب في علم الحساب

الّفه في عبيه متتبّعاً فيه آثار العرب والعجم، آخذًا مأخذ الافرنج في وضع العلامات، ضاماً اليه من كتبهم ممّا لا وجود له في كتب العرب ممّا اخترعه المتأخرون. طُبع لاول مرة في بيروت ١٨٤٨، في ٣١٧ صفحة صغيرة. ثمّ توالت طبعاته بسرعة حتى بلغت تسعاً سنة ١٨٨٥، ولا يزال الى اليوم اشهر المؤلفات المدرسية العربية في الحساب. ثم توخّى المؤلف فائدة طلاب التجارة فاردفه بكتاب

ب — مسك الدفاتر

الاجتماع والاخلاق

له خطب عديدة في هذا الباب من اشهرها :

ا — تعليم النساء

خطاب طويل القاه في ١٤ كانون الاول سنة ١٨٤٩ « يومَ لم يكن أحد يجرأ على ذكر المرأة بالخير» على قول النسائي المعروف جرجي نقولا باز، وهو اجدر من يحكم في هذا الشأن، فلنسمعه يقول عن المعلم بطرس عند ذكره لخطابه « انه كان اوّل من ناصر المرأة في سورية على منبر، بل اول رسول نسائي سوري دعا الى تعليمها وتهذيبها وذلك من سبعين عاماً (نقول اليوم من ثمانين عاماً) وكان بوده انشاء مدرسة نسائية كالمدرسة الوطنية ما ساعدته عليها الايّام» (١ . ثم نشر خطابه في مجموعة اعمال الجمعية السورية سنة ١٨٥٢ اولاً، وفي السنة الثانية عشرة من الجنان ثانياً . فرأينا ان نأخذهُ لهذا الجزء من «الروائع .»

ب — الهيئة الاجتماعية، والمقابلة بين العوائد العربية والافرنجية .
خطاب القي سنة ١٨٦٩، ثم طُبع في ٤٢ صفحة متوسطة

هذا ولم يسهُ بال المعلّم بطرس عن انّ من لوازم التثقيف العقلي القويم، ان توفّر للاحداث من فتيان وفتيات اسباب التسلية النافعة بنشر روايات ادبية خالية من الشوائب، فترجم لهذه الغاية رحلة روبنصن كروزي، ونشرها ١٨٦١ بعنوان :

ج — التُحفة البُستانية في الاسفار الكروزية . وقال في مقدّمتها :
« واذ كانت مهذّبة لا بدّ من انها تكون اكثر قبولاً لدى جمهور هذا العصر الذي انفتح فيه باب المعارف لجنس النساء ايضاً . والذي فيه يجب الانتباه الى تنظيف دواوين العرب وكتاباتهم ومجالسهم ممّا لا يليق من الكلام والاعمال . . .»

وقد نقّح وطبع ايضاً كتاب « اخبار الاعيان في تاريخ لبنان » لطنوس

---

١) جرجي نقولا باز : النسائيات، بيروت ١٩١٩، ص : ٥٢

الشدياق. وجمع ونشر مجموعة اعمال الجمعية السورية الاولى سنة ١٨٥٢ .

اما ذاك العمل الجبّاري الذي باشره في عصر تعجز العشرات من العلماء عن التفكر به فهو

دائرة المعارف

« قاموس عامّ لكل فنّ ومطلب» ! هكذا عُرّفت الدائرة ، ومنه يتضح اتساع هذا المشروع لجميع العلوم والفنون . اما كلمة « دائرة المعارف » فاختارها المعلم بطرس ترجمة « لانسيكلوبيديا » . وكان قد وعد في خاتمة « محيط المحيط » بتأليف كتاب للاعلام ، ثم توسع بالفكرة ورأى خلق الدائرة . وهي عمل فذ في اللغة العربية ، وقد ظهرت منذ ولادتها على جانب عظيم من الاتقان . قال المقتطف : « ان الذي يُعلم من تاريخ « الانسيكلوبيدات » الابتدائية الاوربية انها لم تكن في منشأ امرها على ربع ما هي عليه « دائرة المعارف » من إحكام التأليف ، وغزارة المادة ، والضبط ، وحسن الطبع والورق والتجليد والصور . » وقد اخذ المعلم بطرس يهتمّ بتبويبها سنة ١٨٧٥ فأتمّ هيكلها الابجدي ، ثم اقبل على انشاء موادّها مع ابنه سليم ، ونسيبه سليمان وبعض الكتاب فاصدر اول جزء منها سنة ١٨٧٦ . وما زال يتابع اصدارها كلّ سنة جزءًا كبيرًا يبلغ نحو ٨٠٠ صفحة ، حتى اصدر منها ستة وفاجأه الموت ، وقد اعدّ نحو ثلثي السابع ، فشاء القدر ان يوقف « دائرته » عند كلمة « دائرة » . لكن ابنه سليم قام بالمشروع من بعده فاصدر الجزء السابع سنة ١٨٨٣ ، والثامن سنة ١٨٨٤ ثم توفي في شبابه . فتابع العمل ابناؤه الباقون مع نسيبهم سليمان ، فاصدروا التاسع سنة ١٨٨٧ ، والعاشر سنة ١٨٩٨ ، والحادي عشر سنة ١٩٠٠ وهو ينتهي بكلمة « عثمانية » . ثم توقف العمل .

ولا يزال الكثيرون يؤمّلون اتمامه . على اننا نرى ان الفائدة من اتمامه على شكله الاوّل لا تفي بالمشقّات . الا اذا اهتمّ من يتولى ذلك — ولا يمكن ان يتولاه الا لجنة كبيرة من العلماء — باعادة طبع جميع المجلدات السابقة . فان العلم تقدّم خطوات واسعة منذ سنة ١٨٧٦ ، وكذلك اكتشفت آثار جمّة ولاسيما في الشرق ، حوّرت كثيرًا في المعلومات التاريخية والجغرافية . وطبع المستشرقون والشرقيون عددًا وافرًا من كتب العرب شعرًا ونثرًا أثّرت ايضًا في المعلومات

الادبية . ولم يعُدْ بالامكان ، والحالة هذه، ان تُتمّ في عصرنا قاموساً علمياً فنياً ادبياً بُدئ به منذ اكثر من خمسين سنة . وان المعلم نفسه لو لم يؤمل اتمام مشروعه في حياته ، او على الاقل في حياة ابنه سليم ، كما كان يلمّح الى ذلك (١ لما باشر عملاً كهذا .

تأثيره

في سرد ما تقدّم من المؤلفات ، والمؤسسات ، والاعمال المختلفة براهين واضحة على ما كان عليه المعلم بطرس البستاني من شخصية بارزة مؤثرة ، ومن جُرأة في الاقدام على المشاريع العامّة ، ومن رغبة في افادة بني قومه ، وتضحية في سبيلها يقرن ذلك الى معارف واسعة ، وبصر دقيق في الامور ، ونظر بعيد الى المستقبل ، مع حزم في الادارة ، واخلاص في العمل

كلّ هذا كان عاملاً قوياً على رفع مقامه في عيون معارفه من الوطنيين والاجانب حتى كان لكلمته اعمق تأثير في البيئات السياسية العالية ، والمجامع الوطنية . وكان الكثيرون لا يتراجعون امام استشارته في اشغالهم ، فلا يبخل عليهم بوقته ، على شدّة حرصه عليه ، ويصرفهم جميعاً مسرورين ، شاكرين له دقّة ملاحظاته ، ووضوح آرائه .

وكان يجتهد في ان يجعل ذاك الوضوح في كل اعماله لاسيما العقلية منها . حتى ان من يطالع تآليفه العديدة ، سواء كانت لغويةً او علميةً او تهذيبية ، يلمس فيها تلك الرغبة في الوضوح والجلاء ويرى امامه هيكل المؤلَّف بارزاً في التقسيم العقلي والتبويب الطبيعي ، فلا يجد ادنى صعوبة في فهمه .

وكذلك القول في مبنى تآليفه وسهولة انشائه . ولعلّ له الفضل الاكبر في هذا الامر . فانه بينما كان الكثيرون من ادباء القرن التاسع

---

١) المقتطف ٨ (١٨٨٣) : ٤

عشر يسيرون وراء الاقدمين فيقلّدون انشاءهم المنمّق باستعمال استعاراتهم الباردة ، وجناساتهم المضحكة ، واسجاعهم التافهة، وسائر طرق زخارفهم التي لم يكن يفهمها شعب القرن التاسع عشر، فيضيّعون وقتهم غير نافعين، ووقت قرّائهم غير مستفيدين ؛ كان المعلم بطرس يختار من الالفاظ ابسطها ، ومن التعابير اسهلها ، ومن الاساليب الانشائية اسذجها . حتى ان من يطالع الاجزاء الاولى من مجلّة الجنان يستغرب وجود تلك الافكار السامية ، وتلك الملاحظات الدقيقة ، تحت تلك الكلمات البسيطة ، والجمل التي تجاور الركاكة احياناً . ولكنه اذ يُعمل عقله وينتقل الى عصر الكاتب ، ينحني إجلالاً امام من رغب حقيقة في منفعة بني قومه فخطّ امامهم سبيلاً سهلاً من الانشاء سار عليه اولاده من بعده ، « فاجادوا وافادوا في ابتكار هذه الطريقة لخدمة الصحافة ، والعلم ، والوطن » [1]

ان رجلاً امتاز بهذه الصفات ، لا بدع ان يكون « في عصره زعيم الحركة الادبية في سورية من حيث المدارس والجمعيات والجرائد والمجلّات واللغة والعلم والادب . » [2] اذ كان يمثّل العلم الصحيح العقلي ، والعمل الدائم ، والاستقامة، والوطنية ، كما يقول خيرالله . [3] ولا بدع ان يؤثّر في الادب العصري هذا التأثير العميق الدائم ؛ ولا بدع ان يجمع ادباء وعلماء القرن العشرين على تكريمه كنابغة القرن التاسع عشر في خدمة لغته ووطنه ؛ ولا بدع ان نقول مع الشيخ خليل اليازجي في رثائه :

خدم البلادَ وليس اشرف عنده من ان يسمّى خادماً لبلاده !

---

١) الڤيكونت فيليب دي طرّازي : ك . م . الجزء الثاني ص : ٤٧

٢) جرجي زيدان : تاريخ الآداب العربية ، الجزء الرابع ، ص : ٢٩٩

٣) K. T. Khaïrallah : *La Syrie, p. 51* . (المآخذ في آخر هذا الجزء)

تعليم النساء

١٨٤٩

المقدّمة

بيان المقصد: ضرورة تعليم النساء

انهُ، في النظر الى هذا الموضوع، لا بدَّ من ملاحظة ما كتبه اصحاب الدراية والتحقيق، وما يشهد بهِ اختبار جميع الاعصار والامكنة، من امر النساء تحت اختلاف احوالهنَّ من حيث المعرفة والجهل، والتمدُّن والتوعُّر، الى غير ذلك من شؤونهنَّ. ويجب اعتبار ما لهنَّ، بحسب تنوُّع تلك الاحوال، من المفعول والتأثير في الهيئـــة الاجتماعية والجمهور، من حيث الآداب والسعادة والشقاء والخير والشرّ وهلمَّ جرًّا. والذين بذلوا جهدهم في رصد ذلك ومراقبته، واختبروا هذا الجنس وجرَّبوه في كل حال، قد استخرجوا بحذاقةٍ وحكمةٍ نتائج جليلة، وفوائد جمة، تؤيّد ما نريد اثباته في هذا الخطاب من وجوب تعليمهنَّ وفوائده، والاضرار اللاحقة بالكون من جرَّاء جهلهنَّ. وحكموا عن رويّة وصواب بان سبكهنَّ في قوالب التعليم والتمدُّن، وانصياعهنَّ الى شرائع تقتضيها الهيئة الاجتماعية، يكلّلان عالمنا هذا بتيجان الفوز والنجاح، ويحلّيان جيده بقلائد الراحة والسلامة، ويطوّقانه باطواق السعادة. وبأن تقلبهنَّ في ظلمات الجهل، وتركهنَّ لرحمة الطبيعة وعناية الفِطرة[1]، يحطُّ شأن الانسان ويورثه الذلّ

1) الفِطرة: الصفة التي يتَّصف بها كلّ مولود في اول زمان خلقته.

والهوان. فضلاً عن انهُ يلحق المرأة نفسها بما لا عقل لهُ من البهائم البكم[1].
ومن العجب اننا نرى كثيرين من ابناء هـذا الزمان ، حتى في الاماكن المتمدنة ، قد اهملوا هذا الجنس غير مرتضين بترقيتـه من حالته المتوحّشة الى حالـة تليق بمن يشاركهم في القوى العقلية ، ويساعدهم على اصلاح احوال الجمهور والبلاد. وآخرين يبذلون همتهم في منع النساء من التمتُّع بما من شأنه ان يصلحهنَّ خلقاً واخلاقاً ، كما سنبينه ان شاء الله تعالى. وهم بذلك ينزّلون المرأة دون منزلتها المعيَّنة لها من بارئ الكون ، ويختلسون منها تلك الحقوق التي اقامها لها الله ، عزَّ وجلَّ .

موقف اعداء العلم

هذا وان كثيرين ، مع انهم تحت دَين ثقيل للعلم والعلماء ، تراهم يحاولون ان يرفعوا رأس الجهل مدّعين بوهم انه[2] ابٌ شرعيٌّ لحسن العبادة، وملجأ امين للديانة. ويقدحون في حق العلم ، ويطعنون في اهله ، زاعمين تارةً ان العلم من شأنه ان يولّد الكفر في الايمان والزندقة[3] في الاديان ؛ واخرى انه يُورِث من أوغل فيه الجنون ، ويرمي ذهنه في ورطات لا سبيل الى التخلّص من حبالها. وقد فاتهم ما فاتهم من ادراك كنهِهِ ، والاحاطة

---

١) ينعت البهائم بالبَكَم لأن الميْزة الفارقة بين الانسان وسائر الحيوان هي النطق، كما يتفق عليه الفلاسفة في تحديدهم اذ يقولون: « الانسان حيوان ناطق! » وليس معنى النطق الكلام فحسب، كما يتوهم البعض، بل « الكلام بحروف تُعرف بها المعاني »

٢) انه: اي الجهل

٣) الزَنْدَقة : صفة الزِنْديق ولهذه الكلمة معانٍ عديـدة منها الذي يُبطن الكفر ويُظهر الايمان وهو المراد هنا . راجع اصل كلمة « زنديق » في المشرق (١ [١٨٩٨] ٦٨١)

بفضلهِ وشرف اهله . وصدق فيهم المَثل السائر: « عدوّ الصناعة جاهلها ».

ولا يسعني الوقت للردّ على هؤلاء ، وتبيين فضل العلم وشدّة الاضطرار اليه بحسب ذاته ، مجرّدًا عن النظر الى المتعلّمين والمتعلّمات ، بل انما أتخذ ذلك كقضيّةٍ مسلَّمة[1] لا تحتاج الى برهان . ولا يخفى ان الذين لا يستحسنون العلم في معاشر الرجال ، يعسر على الفيلسوف نفسه ان يحملهم على الاعتقاد بوجوبه في عامة النساء ؛ فكم بالحري على طالبٍ قاصر نظيري . وهل يرجى ، والحالة هذه ، ان يروق لناظرهم ما قصدت الى اثباته في هذا الباب ? لان من يعتقد ان تعليم المرأة القراءة مثلًا ، فضلًا عمّا وراءها ، انما هو كالقاء نارٍ على نار ، او وضع سمٍّ ناقعٍ في فم افعى ، الى غير ذلك مما يطرق مسامعنا مرارًا كثيرة في المفاوضات المتعلّقة بهذا الجنس المسكين ، كيف يمكننا إقناعه بان تعليمها ذلك ، وما فوقه ، كوضع ترياق في فم عليل مدنف ، او صبّ زيت وخمر على جرح بليغ ? والعجب انهم وصلوا الى نتائج كهذه على البديه من دون امتحان ولا اختبار ، مع ان ذلك ليس من شأن اصحاب العقول . لانه مسلَّم أن الترجيح بين الطرفين يستلزم ، لا محالة ، الاطلاع عليهما جميعاً ومعرفتهما جيدًا .

حالة النساء

ولعلّه قبل الاخذ في الموضوع يفيدنا النظر قليلًا الى حالة النساء بين الامم الوثنيين او البرابرة ، ثم تذييل ذلك بكلمة او كلمتين عن حالتهنّ

١) القضية المسلَّمة : ما يقبل به الخصمان ، او ما يقبل به عادةً اهل العلم ، من القضايا او المقدّمات التي لا تتطلب برهاناً خاصاً .

في هذه البلاد . ولا بدّ من الاختصار في ذلك جميعه لضيق الذَرع ، وضيقة المقام . وبالله المستعان والتوفيق .

حالتهنّ بين الوثنيين والبرابرة

ان الامم الوثنيين او البرابرة بوجه العموم ، في كل عصر ومكان ، من شأنهم الاستخفاف بشأن النساء واحتقارهنّ غاية الاحتقار . ومن شرائعهم وقواعد اديانهم ان المرأة يجب ان تكون مذلولةً تحت رقّ العبودية مدة حياتها . وذلك تحت استيلاء الوالدين قبل الزواج ، وحكم الزوج بعده ، وبعد وفاة الزوج تلتزم المسكينة تأديةَ الطاعة لثمرة احشائها انفسهم . وليس من يهتم بتعليمها شيئاً مفيداً ، سواء كانت من بنات الغني والخطر او من بنات الذلّ والمَسكنة، زاعمين ان العلم يوقعها في الترمّل او مصيبةٍ اخرى . حتى انه بين الملايين الكثيرة في الهند ، لا ترى عشرين من هذا الجنس يعرفن علوم هذه المملكة . ومنزلتهنّ عندهم منزلة اماء للخدمة، او جوارٍ للاعمال الشاقة . والفرق بينهنّ وبين ما في حوزتهم من الاملاك والمواشي قليل لا يعتبر . وربما لا ينال المرأة من قلب رجلها الا جزء يسير جداً ، لا يسع شيئاً من المحبة المطلوب وجودها في قلب الزوج نحو زوجته التي يحقّ لها الاستيلاء عليه بجملته . ولا يخفى ما يعقب ذلك من التشويش في نظام البيوت والعيال . وكثيراً ما يطلّقونهنّ من دون ما يقوم باحتياجاتهنّ، فيصلنَ الى حالة شقية يرثى لها من الفقر والحاجة . وبواسطة الاستار والاخبية ، نراهم مراراً كثيرة ، لاجل المحافظة عليهنّ ، يحجبونهنّ عن النظر الى زينة الدنيا وبهجتها ، كأنهنّ ادنى طبقة من البهائم التي يركن اليها في الاهتمام بانفسها . اما الفقراء منهم فانهم في الغالب

يروضون[1] ما امتلكوه من النساء بواسطة اعمال شاقّة في البيت او الحقل مما يليق بالرجل دون المرأة. وربما اتخذوهنَّ متَّخذ بهائم الحمل كما نرى من هنود اميركا. فانهم عندما يعزمون على الانتقال من مكان الى آخر، يحمّلون ما ملكته اياديهم من الاثقال والاعراض كادوات الخيام وغيرها، على ظهور النساء، ويتمشّون معتقلين رماحهم وسائر اسلحتهم خاطرين[2] امامهنَّ. ويزعمون ان ذلك، مع استعمال الفأس والمحراث وما اشبه، مما لا يليق بشرف الرجل، بل انما هو خاصٌّ بالمرأة. والامم لا اعتداد بحياة المرأة عندهم فيعدمونها اياهـا متى شاؤا لادنى سبب، من دون سؤال عن القاتل. وماذا نقول عن القساوة الفظيعة والعادة البربرية في الهند نحو بنات حواء. فانهم يدفنون المرأة او يحرقونها حية مع جثّة بعلها. ولولا الحكم الانكليزي، كنت ترى كلَّ يوم ضحايا كثيرة من هذا الجنس الشقي. أوَما هو امر محزن ان المرأة التي لها نفس كالرجل، وامامها ثواب وعقاب نظيره، لا يكون لها حقٌ في السؤال عن امور الديانة والخلاص، ولا اذن في تعلّمها ؟ اوَما هو مبدأ فاسد ان الديانة والتعليم، اذا لم يزيـدا المرأة شرًّا، لا يجعلانها احسن مما هي ؟ وهل التوحّش والحالة البربرية تخفّف شقاءها وشرَّها كما يريدون ان نصدّق ونعتقد ؟

فمن النظر الى ما ذكرناه، والى ما لم يسعنا ذكره، نستدلّ على ماهيّة ديانـة هؤلاء وفساد آدابهم ومبادئهم، وجور شرائعهم؛ وعلى عظم

---

١) يروّضون : من روَّض الحيوان ذلَّله وجعله مطيعاً . والكلمة في غايـة الموافقة لما يُقصد بها من المعنى.

٢) خاطرين : من خَطَر برمحه : رفعه مرَّة ووضعه أُخرى، وسار مهتزًّا متبخترًا.

الشقاء والتوحّش المستحوذ على بلادهم من غير ان نراها . ويبان لنا الاضطرار الى ديانة ترفع شأن المرأة وتسمح لها ان تتمتع بحقوقها الطبيعية والالهية . وتجعلها معيناً للرجل بازائه ، يشاركه في اعماله وآرائه . وتحسبها ليس امّاً ومربيةً لاولاده ، بل ايضاً مرشدة لهم ، واكبر المساعدين في تعليمهم وتهذيبهم .

حالتهنّ في بلادنا

واما النساء في هذه البلاد ، ولئن كنّ ارقّ حالًا وارفع درجةً مما هنّ في بلاد الامم الوثنيين ، فانهنّ لم يبلغنَ الدرجة المطلوبة من المعرفة والتمدّن مما يقتضيه نجاح البلاد ، وتقدّم الاهالي . وكأنهنّ في حدٍّ متوسّط بين برابرة الدنيا ومتمدنيها : فهنّ ، بالنظر الى نساء الهند مثلًا ، متمدنات ؛ ولكن بالمقابلة مع نساء اوربا ، لم يزلن بمعزل عن ذلك . فكم امرأة ، بين الكرّات[1] الكثيرة في بلادنا ، تعرف القراءة ؟ وكم نرى مدرسةً في كلّ برّ الشام اقيمت لاجل تعليمهنّ ؟ أوَليس من يُنكر احتقارهنّ ، وجهلهنّ في الدين والدنيا ، كمن يحاول انكار وجود الشمس في رائعة النهار ؟ اما يستنكف الرجال من ذكرهنّ ، واذا أُلجئوا الى ذلك يعقبونه : « بأجلك ! » و « تكرم عن هذا الذكر ! » وهلمّ جرًّا ، كأنهم يذكرون بهيمةً او شيئاً قذرًا دنيئاً ؟ وهل يحفظ مقامهنّ او تُراعى لهنّ حرمة ؟ أوَما يُستعمَلنَ مرارًا كثيرة للمقاصد نفسها التي يُستعمَلنَ لها بين البرابرة ؟ والى ايّ امرٍ يلتفتنَ في الاكثر ؟ أليس الى الزينة واللبس ، والتفنّن باصناف النقوش ؟ أوَما نسمع الصراخ ضدّ ذلك يعلو المنابر ؟ وماذا يعرفن من

---

[1] كرّات : ج . الكرّة : مائة الف .

تربية الاولاد ، وترتيب البيوت ، ونظافتها ، وخدمة المرضى ؟ وكم هي الخرافات المنكرة التي يعتقدنَ بها مع انها محرّمة بنصّ الديانة ؟ وما لي وللنوادر فانها لا تُعتبَر !

هذا واني لم اذكر عنهنّ شيئاً يجهله غيري. أما امتلأت الكتب ، والكازتّات[1] ، ومكاتيب اصحاب الاسفار ، من شرح حالهنّ ؟ أوَليس كل من كان له ادنى اطلاع على احوال العيال والاهالي يعرف ذلك احسن مما اعرفه انا ، ومرارًا كثيرة يئنّ من ثقله ويطلب اصلاحه ؟ ولعلّ هذه الاشارات كافية في هذا الباب ؛ وعلى الخبير اللبيب بسط النظر الى ما لم نذكره ، اعتمادًا على شهرته ، وحذرًا من المَلَل. وقصدي فيه انما هو انهاض همّة النساء الى العلم ، لكي يكنّ اهلًا لكرامة اكثر. وان استعطف الرجال ، لكي ينظروا الى اصلاح حالهنّ ، وانتشالهنّ من اعماق الانحطاط

ثم ان ما اذكره في هذا المعنى ليس هو الا نقطة من بحار ما يحتمله او يقتضيه هذا الموضوع المهمّ ، المتعلّق اقلّه بنصف الخليقة الناطقة . وقد عدلت عن ترصيع خطابي هذا بنصوص الكتب المنزلة ، التي كان يمكنني الاتيان بكثير منها ، استنادًا الى انّ الذين يتجه كلامي اليهم لا يخفى عليهم ما هي تعاليم اديانهم من هذا القبيل. واذ قد عرفنا ذلك نتقدّم الى ما قصدنا اثباته من وجوب تعليم النساء ونتائجه ، ومضرات عدمه فنقول:

---

[1] الكازتّات : ج كازتّة : لفظة ايطالية الاصل كان يستعملها كتّاب القرن التاسع عشر للدلالة على ما ندعوه اليوم بالجريدة سواءٌ كانت يومية او اسبوعية . وقد جاء في محيط المحيط للمعلّم بطرس نفسه : « الكازتّة : ورقة تُدرج فيها اخبار الحوادث يوماً فيوماً ، او اسبوعاً فاسبوعاً ، ايطاليانية . » (مادّة كزت)

وجوب تعليم النساء

حق المرأة في التعلم لكي تقوم بواجباتها

اما وجوب تعليم النساء فيتضح مما يأتي :

لا يخفى ان الانسان ، ذكراً كان او انثى ، عند دخوله عالمنا هذا بالولادة ، يكون موكولًا بجملته الى عناية غيره وتدبيره . فهو لا يُدرك ما حوله من الموضوعات ، ولا يستطيع الجدّ في طلب قوته ، وباقي احتياجاته . ولا يقدر على تمييز النافع من المضر ، او الخير من الشر ، حتى انه اذا تُرِك لنفسه هلك لا محالة ، ولو كان قد بلغ السنة الرابعة من عمره . وذلك بخلاف ما نراه من طائفة البهائم وسائر الحيوانات كما لا يخفى . وعند ذلك تكون اعضاء الانسان ضعيفةً ، وقُوى عقله مظلمةً ، ومعرفته قاصرة محصورة في دائرة ضيقة جدًا . ولكن بواسطة ما يُعرَض على حواسه ظاهرًا وباطناً من الموادّ الطبيعية ، والقضايا العقلية العارية عن المادّة ، يأخذ في التقدّم شيئاً فشيئاً في ادراك ما حوله ، وتقليده ، والحكم عليهِ . وتتوسّع قواه العقلية والادبية ، ومبانيه البدنية بالتدريج ، الى ان يدرك الحدّ الذي اقامه له باريء الطبيعة ، وحكم عليه بعدم تخطّيه ومجاوزته . وهكذا الانسان يتعلّم بالاختبار ان النار مثلًا تحرق ، والسمّ يهلك ، ويميّز الحلال من الحرام ، وما يوافق الآداب مما يغايرها ، الى غير ذلك . ولا يزال يتقدّم في توسيع دائرة عقله وجسمه ، وتهذيب اخلاقه ، و صلاح سيرته وسريرته ، او غير ذلك ، الى ان يقال فيهِ انه قد صار اكليلًا على رأس الخليقة . هذا وانه يوجد في هذا المعنى تفاوت عظيم بين رجل وآخر ، وامرأة واخرى ،

وبين الرجل والمرأة. فربما استفاد الواحد في سنة مثلًا ما لا يحصّله الآخر في سنين. وعلى ذلك يكون فرط الاحتياج الى العناية في كلّ واحد على قدر احتياجه واستعداده واحواله. وهو مسلَّم أن المرأة تكون في الغالب اقلّ استعدادًا، واكثر احتياجاً من الرجل كما سنبيّنه . ولهذا لكي تقدر على تتميم ما خصّها به المولى، عزّ وجلّ، من الواجبات، اذ اقامها امًّا للخليقة، تحتاج الى صرف عناية اقوى، وبذل اشدّ الاهتمام في اعدادها لتكميل واجباتها واتقانها.

ان تركيب جسم المرأة، داخلًا وخارجاً، وضعف بنيتها، واللطافة في مجموع اعضائها، ترينا انها غير قادرة، طبعاً، على مباشرة كثير من الصنائع او الاعمال الشاقة، كرفع الاثقال مثلًا، وحراثة الارض، وعمل الحديد، وبناء البيوت، ونقل ادوات الحرب على الاعداء، الى غير ذلك مما يستدعي بناء[1] متيناً، ويليق بالرجل دون المرأة. ولكن وضع اعضائها على نظام مخصوص، واقتدارها طبعاً على اعمال كثيرة تناسب تلك الاعضاء، ووجود بعض فنون اكثر لياقة بها من الرجل، تحملنا على الحكم بأنها لم تخلق لكي تكون في العالم بمنزلة صنم يُعبَد، او اداة زينة تُحفَظ في البيت لاجل الفرجة ولا لان تصرف اوقاتها بالبطالة وكثرة الكلام والهذيان، او تقتصر من الاعمال على كناسة البيت مثلًا، والقيام بمهمّات الدخان والقهوة، وايلاد البنين، وما اشبهها. او ان تمتزج طبيعتها بطبيعة الرجل، واعمالها بأعماله، حتى لا يبقى ما يميّز بينهما الا مجرّد البنية والهيئة اذ لا توجد حالة تجعل لمجموع جهاز المرأة تلك القوة التي للرجل، ولو مهما

---

١) بناء: اي بناء جسمياً .

أُلقِي عليها من الاعمال الشاقّة المختصة به كما نرى فيما بين البرابرة . حتى ان حذّاق المشرّحين يميزون بسهولة وسرعة اعضاءها من اعضائه ، ولو مرَّ عليها في هذه الحالة آلاف من الاجيال المتوالية . وكذا اذا نظرنا الى ما اسبغهُ الله عليها من القُوى العقلية والادبية ، كالتمييز ، والذاكرة ، وقابلية التعلُّم والتعليم ، والميل الى الخير والشرّ ، وهلمَّ جرًّا ، نستدلُّ على ان هذه القُوى لم تُعطَ لها عبثاً من دون غاية ، وبالتالي انـه يجب ان يكون لها حقُّ التصرُّف بها ، وتهذيبها ، وتوسيعها بحسب الاقتضاء . ولا يصدَّق ان الباري ، عزَّ وجلّ ، قد زيّن المرأة بهذه الصفات ولكن حرَّم عليهـا استعمالها ؛ او ان التمييز بين المرأة والبهيم انما يقوم بمجرّد وجود هــذه القُوى فيها مع فقدها منه .

ولا يخفى ان للمرأة اختصاصات ليس للرجل حظٌّ فيها ، وبالعكس . غير انهما قد يشتركان في حقوق متساويـــة بينهما ، ومن جملتها ما نحن في شأنه . وهل توجد شريعة تمنع الرجل من تحصيل ما لا بــدَّ له منه لاجل مباشرة ما اشترك فيه من الاعمال مع المرأة ، او انفرد به عنها ، واتقانه جيدًا ؟ فلا يجب اذن ان توجد شريعة او عادة او عائق آخر يمنع المرأة من التمتع بحقها من هذا القبيل . ولا التفات الى من توهّم ان المرأة انما خُلقت لكي تكون موضوعاً للنسيب والغزَل ، ولاجل قيام الكون وبقائه . ولا ريب ان من نزَّل المرأة في هذه المنزلة لا يحتاج الا الى جمال قدّها ، ومعانيها ، وكونها مثمرةً لا عاقرًا وما اشبه . واما ما وراء ذلك فلا سؤال عن وجوده لانه عنده كالعدم . وهو ظاهر ان هذا عند زوال المبدأ الذي يحمله على طلب ذلك فيها ينبذها عنه كارهاً . ولا يعود عند المسكينة شيء من مطلوباته ، او مما يحمله على محبتها او مصادقتهـا . وعلى مقتضى زعمه ،

يجب ان تلك الجوهرة الكريمة في المرأة التي يلتفت اليها العاقل عند ما يستفيق من خمره ، وينتبه من سكرته ، تدفن باقذار الجهل والتوحّش. ومع انها قد فاقت ما للرجل في مباحث عديدة ، يجب ، عنده ، ان تستر باعمال وخصال تحطّ شأن هذا الجنس كل الحطّ ، وتلحقه بما لا عقل لهُ من الحيوانات . فضلاً عن اضرار ذلك بالكون على انحاء مختلفة كما سنبيّنه ان شاء الله تعالى .

ولماذا لا نقول عن الرجل انهُ ، في هذا المعنى بالنظر الى المرأة ، كالمرأة بالنظر اليه . واذا وُجد بينهما فرق فيكون قليلاً لا يُلتفَت اليهِ . ولو أُهمل الرجل من كل عناية ومُنع عنه كل وسائط المعرفة والتمدُّن كما يكون الحال غالباً مع المرأة ، أفما كنا نراه قد تقهقر الى درجة النساء ، اذا لم يتجاوزها انحطاطاً ؟

ثم ، سلّمنا ان للرجل وحده حقًّا في التعلّم والتمدُّن والتمتّع بخيرات هذه الحياة والحياة المقبلة ، أفما يلزمنا التسليم بوجوب تعليم النساء لكي يتيسّر لهُ الحصول بسهولة على هذه الحقوق . اذ من المعلوم الذي لا يشوبه ريب أنه لا يمكن وجود العلم في عامة الرجال دون وجوده في عامّة النساء ، كما انه لا يوجد نساء عالمات في عالَم من الرجال جاهل . وذلك لوجود العلاقة الرابطة بين الطرفين ، وتأثّر احدهما بالآخر . وما خرج عن ذلك فنادر لا يُبنى عليهِ حكم . أوَما نرى المرأة مراراً كثيرة تشغل مكان الرجل عند عجزه عن القيام بحق واجباته او فقده ، فيضطرها الامر الى مباشرة كثير من الاعمال المختصّة بهِ . واحياناً نرى الرجل نفسه في اضطرار كلي الى المرأة لكي تأخذ بيده وتساعده في الرأي والعمل . وكم رأينا واحدةً من هذا الجنس ، لاجل مجرَّد ولادتها من عائلة شريفة ودم

ملكي، قد جلست في كرسي الحكم وسادت رقاب العباد سيادة مستبدة مستقلة. فألجأها الحال الى الاهتمام بالملكة والمحافظة عليها، حتى ان سعادة المملكة وشقاءها يتوقفان على تدبيرها وارادتها. أوما نرى رجالا كثيرين عند وفاتهم يتركون لنسائهم املاكاً وبنين وغير ذلك لاجل الاهتمام بهم وتدريبهم وتدبيرهم؟ وهل نقدر ان نشير الى واحدة من هذا الجنس، ونحكم بان صروف الزمان وتقادير الدهر لا تلقيها في احدى هذه الاحوال؟ وماذا نستنتج من كل ذلك الا شدّة الاحتياج الى تعليم النساء ووجوبه من دون استثناء؟ وناهيك ان واجبات المرأة الخصوصية ليست بقليلة. ووجوب تعليمها بالنظر الى هذه الواجبات سيزيد وضوحاً من ملاحظة ما سيرد بيانه.

مواد التعليم

واما ما يجب على المرأة ان تتعلّمه فهو بالاجمال كل ما لا بدَّ لها منه لاجل تتميم واجباتها الخصوصية بسهولة وتدقيق وتقانة[1] ونَصاحة[2]، وجعلها عضواً يليق بجماعة متمدّنة. ومن ذلك:

اولاً — الديانة. لان تعلُّم الديانة من اكبر حقوق المرأة، واعظم واجباتها. وليس عاقل يسلّم بان الديانة انما أُنزلت على الرجل، وأُعطيت له وحده. وبما ان اوامر الديانة ونواهيها تتجه الى المرأة والرجل معاً، لا يقدر احدهما ان يقوم مقام الآخر في معرفتها وتأدية واجباتها.

ثانياً — اللغة التي وُلدت فيها. بحيث تكون قادرة على تأدية المراد

---

١) التَقانة: الاسم من اتقن العمل: احكمه.

٢) النصاحة في العمل: الإخلاص فيه.

بكلام صحيح اللفظ والمعنى. والّا فانها توقع فسادًا في لغة جيلها مبتدئةً في ذلك من اولادها . لان الولد يتعلّم لغة امّه . فان كانت لغتها صحيحة كانت لغته كذلك ، والا فلا. ولا يُحتاج في ذلك الى دليل او مثال . فان تأثير المرأة في لغة جماعة اعظم مما يتوهّمه البعض. وربما كانت الامّ من اكبر العلل في تفرُّع اللغات وفسادها . ولعلَّ تعلُّم لغات غريبة مما يفيد المرأة فائدة كبرى ويفتح لها باباً للعثور على فوائد مفقودة او نادرة الوجود في لغة قومها. كما هو الحال في اللغة العربية التي لم يلتفت الذين كتبوا فيها الى المرأة او الاطفال والبسطاء . ويا ليت قومنا المتأخرين لم يحذوا حذو الاوّلين في هذا المعنى !

ثالثاً — القراءة . ولا يخفى احتياج المرأة الى هذه الواسطة . لانها بواسطة الحروف ، وقوّة الباصرة ، تتوصّل الى ما لا سبيل لها الى الوصول اليه بواسطة الصوت والاذن وضعف قوّة الذاكرة في الانسان وانطباعه على النسيان ، ولاسيما المرأة ، مما لا يشكّ به احد. فهي لا تقدر على استحضار جميع واجباتها من روحية وزمنية دائمًا في ذهنها ، فتحتاج الى من لا يزال يقرع اذنيها ويذكّرها بها ، والكتاب يتكفّل بذلك. فانه قادرٌ ان يكون معها ويرافقها في كل زمان ومكان وحالة. فهو يكلّمها من دون صوت. وينبّهها من دون خوف ولا خجل. ويجيبها من دون تذمّر ولا ضجر . وهي تأخذ رأيه متى شاءت من دون احتسابٍ[1] ولا حياء. واذا وجدته غير امين تقدر ان تنفيه او تحرقه ولا جناحُ عليها.

رابعاً — الكتابة . ومـا يتوهّمه البعض من مضرّات هذه الصناعة

---

١) الإحتساب : بمعنى الحشية .

الشريفة للمرأة باطل لا اساس له . ولايّ شيء نحرم المرأة الواسطة الوحيدة لتبليغ خاطرها مكاناً لا يصل صوتها اليــه ؟ وكم هي قيمة الكتابات المكتوبة من رجل تستأجره المرأة لكي يفتكر عنها ويكتب لها ؟ ولا يجوز ان نقاصّ كل الجنس بذنب واحدة منه قد اساءت استعمال هذه الآلة . وبموجب هذا المبدأ ، يلتزم الرجال انفسهم ترك القلم، لانهم كثيراً ما يسيئون استعماله.

خامساً — علم تربية الاولاد . وهو علم نفيس لا بدَّ منه لكل امّ . وكيف تقدر المرأة ان تقوم بحقّ التربيــة لاولادها ، اذا كانت جاهلة للمبادئ ، والاصول المبنية عليها ، مأخوذةً من اختبارات عيال واجيال عديدةَ ؟ وهل تعرف من نفس طبيعتها مــا هي الطريق الاحسن لاقتياد الولد الى الخضوع والطاعة مثلاً ؟ اما نرى كثيراً من الامهات لا يعرفن طرق المحافظة على الاولاد نفساً وجسماً؟ ونتائج ذلك اوضح من ان نبيّنه .

سادساً — الاعتناء بالبيت من خدمة ، ونظافة ، وخياطة ، وطبخ ، واهتمام بالمرضى وما اشبه . ويا ليت عندنا مدرسة للنساء لاجل تعليمهنَّ هذه الاعمال المظنونة من كثيرين حقيرة لا تحتاج الى علم او مدرسة .

سابعاً — الجغرافية . وهذا العلم من شأنه ان يوسّع عقل من تعلّمه ، ويفيده في امور كثيرة . وعلى ظني انه لا يضرّ المرأة توسيع عقلها . وفائدة هذا العلم لاولادها يعرفها مَن سمعها تجيب اولادها ، وتسألهم في هــذا الموضوع .

ثامناً — التاريخ . وفائدته لها ولاولادها لا تُنكر . وشــدَّة ميل الاولاد الى استماع القصص والاخبار مما لا يشكّ فيه احد . وعوض ان تصرف الام اوقاتها مع اولادها بالصمت ، او بقصص كاذبة وحكايات

فارغة باطلة واحياناً مضرّة ، تقدر ، بواسطة هذا العام ، ان تسليهم باخبار تاريخية صحيحة تفيدهم في المستقبل ايضاً . ولو عرف النساء التاريخ وما يتعلّق به من القصص المفيدة لما كنّا نرى اولاد هذا الجيل لا يعرفون الّا قصة الغول والعجوز وامثالها .

تاسعاً — الحساب . والذين لا يعلّقون على الحساب كبير منفعة في النظريات ، زاعمين ان فائدته محصورة في الذين لهم املاك واسعة واموال كثيرة لا يقدرون على احصائها الّا بالقلم والارقام الهندية ، او في ارباب الدواوين[1] ، والتجّار ، قد وقعوا في شطط عظيم . ولو وسعنا الوقت والمقام ، لما كنّا نعجز عن ان نقدّم لهم براهين عديدة تبين لزومه لغير هؤلاء ، وللمرأة نفسها .

هذا ولا سبيل الى تعيين المقدار الذي يجب ان تتعلمه المرأة من كل ما ذكرته . ولا ينتج منه ان المرأة يجب ان تقتصر على تعلم هذه الاشياء فقط ، ولا يجوز لها ان تتخطّاها . وما احسن ما كتبته احدى النساء الفاضلات في هذا المعنى ، وخلاصته ان المرأة يجب ان تتعلّم ما يجعلها حكيمةً من دون عُجب ، ومغبوطةً من دون شهود ، ومفيدةً من دون شهرة ، ويقتادها الى معرفة الحقّ ومحبة الحقائق ، ويقوّم افكارها ، ويهذب عقلها ، ويعلّمها الافتكار والمقايسة[2] والتأليف[3] والتركيب والترتيب ، ويجعلها تفضّل الاشياء الحقيقية الصادقة على الامور المبهجة الحديثة .

---

١) ارباب الدواوين : كتّاب دوائر الحكومة او مجالس الوُلاة .

٢) المُقايَسة : التقدير بين الامرين .

٣) لتأليف : ليس المراد به تصنيف الكتب بل الجمع بين الاشياء وتنظيمها .

فوائد تعليم النساء

اما فوائد تعليم المرأة فكثيرة . فمنها ما يرجع الى المرأة نفسها . ومنها ما يعود الى زوجها . ومنها ما يرجع الى اولادها . ومنها ما يشمل العالم اجمع . وقد سبقت الاشارة بالاجمال الى كثيرٍ من ذلك . فلنتقدَّم الآن الى الكلام عنه بالافراد والتفصيل على وجه الاختصار :

فوائد المرأة نفسها

فمن فوائد التعليم للمرأة نفسها انهُ يوسّع قواها العقلية ويهذّبها . ويوقظ ضميرها وينبّهُ ويحييه . ويقوّم ارادتها، وعواطفها الادبية، ويرتّب سلوكها وتصرُّفها . فيزيد رقَّةَ قلبها رقَّةً ، وحنوَّها حنوًّا ، ولينها ليناً ، وهلمَّ جرًّا من هذا القبيل . ويسهّل طرق واجباتها وييسّر اعمالها وآمالها . ويأخذ بيدها في مدافعة الاهواء المنحرفة المغروسة فيها، طبعاً . ويؤازرها على كبح الجماح الغريزيّ ، وقمع الخصال والملكات الرديّة . ويقيها من الوقوع في ورطات الجهل والحماقة . ويلطّف اوجاعها ، ويخفّف آلامها . ويعطي راحةً لجسمها ، وحرّيةً لضميرها وعقلها ، واستقامةً واصابةً لافكارها وتصوّراتها . ويعيّن لها واجبات واعمالًا تناسب بناءها وتليق بها . ويورثها خصالًا ومزايا تُلقي لها في قلب الجماعة اعتبارًا وكرامةً ومحبة وهيبةً ووقارًا . فلا تعود تُحسَب مجرَّد آلة منفعلة ، لا صوت لها ولا رأي ، بحيث تلتزم بالامتثال طوعًا او كرهاً لارادة سيّدها واوامره دون بحثٍ ولا سؤال . بل تصير اهلًا لان تكون في العالم عضوًا مهمًّا للجماعة يشاركها في الحاسيات والرأي والعمل . وبالتالي يجعلها تعيش بالراحة والغبطة والسعادة في هذه الحياة ، وربما في الحياة الآتية . وكل ذلك غير خافٍ على اصحاب البصيرة والنظر .

فوائد زوجها

اما فوائد تعليم المرأة لزوجها فتتضح من النظر الى نسبتها اليه ، وما تقتضيه تلك النسبة . ولا يخفى ان علائق الارتباط بينهما من اعظم ما يوجد في عالَم نظير عالمنا . ويظهر عنـد التحقيق ان المقصود الاصلي من المرأة لزوجها ان تكمّل نقائص طبيعتـه ، وتجعله اكمل مما كان لولاها . لانها في الغالب تقدر ان تميل بـهِ الى الجهة التي تروق لناظرها ، فتجعله احسن واسعد ، او اردأ واشقى مما هو ، بحسب هواها . وهكذا القول في الرجل بالنظر اليها . وما دامت درجة المرأة او الزوجة لا تُحسَب ارفع من درجة الأَمَة او الجارية الا قليلًا ، يكون تقدّم العيـال ، وبالتالي العالم ، بطيئاً جدًّا . وذلك لانه ، والحالة هذه ، يكون ما يُعمَل في العائلة ، التي هي سرير الطبيعة العظيم ، قليلًا في الغاية ، وتكون الآلة الاقوى المحكم بشريعة المحبة واللطف باطلة عاطلة ، والقوة الصامتـة التي للمرأة في سياسة العالم ضعيفةً لا تأثير لها الا قليلًا . فيلزم حينئذٍ الالتجاء الى الحكم بقوة الخوف والتأديب التي هي قاصرة لا يتوصّل بها الى المراد على اكمل حال . والرجل انما يتخذ المرأة لكي تكون معينةً له في اعماله ، وشريكةً في آرائه وافراحه واحزانه وفقره وغناه ، ومربيـةً لاولاده ، ومهتمّةً ببيته في غيابه وفي حضوره ، واقرب صديق له ، ترافقـه في كل مكانٍ وزمانٍ وحالة ، اذ تطّلع على عيوبه ومحاسنه اكثر من كل انسان غيرها ، دون استثنـاء الوالدين والاخوان . وهي تلتزم لهُ واجبات خصوصية من محبةٍ وطاعةٍ وامانة ، الى غير ذلك مما لا يسعني ذكره . وبما ان شرفها في شهرته ، واكليلها في كرامته ، وراحتها في نجاحه وصلاحه ، يكون نصحه وتقويمه وراحته من اكبر مرغوباتها وهمومها . وماذا ينتج من كل

ذلك الا ان فوائد تعليمها، له ولما يتعلق به ، جزيلة لا تقدَّر ؟ وهل يتأتّى لها القيام بحق ذلك ؛ او يليق بنا ان نطلب او نترجّى منها اعمالًا ومهمّات كهذه دون ان نعلّمها ؟ وكم تكون الخسارة اذا اعفيناها من كل ذلك لكي نتخلّص من كلفة تعليمها ؟ وكيف يمكنها ، دون تعليم ، ان تكون لرجلها زوجة فهيمة ، وصديقةً مشفقة ، ومشيرةً حكيمة ، وقرينةً امينة في تأدية واجباتها له ، ومساعدةً له في اعماله ، ومخفّفةً لآلامه ، ومربيةً خبيرة لاولاده ، وحافظةً لترتيب بيته وتدبيره ، وكاسرةً لعادية حميّته[1] ، وهلمّ جرًّا ؟ والرجل الذي يسأل في المرأة عن حسن الاخلاق والفهم والمحاسن الادبية دون الصفات الخارجة المحضة ، هل تروق له مساكنة زوجة خالية منها او مسامرتها ؟ انما يكون البيت عنده كبرّية مقفرة ، وتكون عيشته مكدَّرة منغَّصة ، وبيته عادماً كل ترتيب ونظام ونظافة ، واولاده متروكين لعناية التقادير والطبيعة ؟ اما تفوته كل البركات والراحة والفوائد المقارنة لعائلةٍ امّها متمدنة تكللها باكاليل بشاشتها وهشاشتها ، وتسود عليها بحكمتها وفطنتها ؟

فوائد الاولاد

ثم ما اعظم الفوائد الحاصلة للاولاد من تعليم المرأة ! لان المرأة تبذل ما لها من المعرفة ، والآداب ، والتمدُّن ، لاولادها . والولد يقبل المؤثرات الاولى من امّه . لانها هي اوّلُ شيء يقع تحت حواسّه وادراكاته . فمن النظر الى نور وجهها يكتسب ابكار[2] افكاره . وعيناها ، وصوتها ،

١) عادية حميّته : اي اول ما يصدر عنه من بوادر الانفة او الغضب او التسرُّع

٢) أبكار : جـ . بِكر : اول شيء . اي افكاره الاولى .

واستمالتها اليه ، تنبّه الحركات الاولى في قلبه. واذ يكون كأرض بائرة[1] لم يخطّها محراث ، ولا علتها منجل ، يقبل منها تلك الحركات مهما كانت ، اي سواء كانت جيّدة او رديئة ، جليلة او حقيرة ، مستقيمة او معوّجة. ويراقب اعمالها وحركاتها بميل غريزي شديد ، ويتّجه نحوها بعواطف قويّة لكي يتقلّد اعمالها ويقتدي بمثالها . وهي حينئذٍ تطبع في قلبه الخالي اللطيف الليّن كل ما طاب لها ووافق ذوقها . وتتحرّك برباطات نفسه ، وهي في قبضتها ، الى الجهة التي تقصدها وتروق لناظرها . ولا يخفى ان المؤثّرات الاولى تكون اقوى المؤثّرات واكثرها دواماً . لانها تدخل الى اعماق القلب بكل قوّة ؛ وهناك تحيا وتنمو ، وتكتسب بالتدريج قوّة تغلب جميع المؤثّرات الأخر ، الطارئة عليه بعد ذلك . وعندما تنهك الشيخوخة جسم الانسان ، وتكاد تتلف اردية نفسه الخارجة ، تبقى تلك التأثيرات في نفسه كبزرة ساطعة في قشورها . والحاسيّات والافكار التي يقبلها الولد من امّه ، وهو صغير ، هي التي تكسبهُ في سلوكهِ الهيئة والصورة المخصوصة التي تكون لهُ في مدة حياته . وهي تبقى معه ولا تفارقه ما دام حياً . ومتى رَمتهُ الشيخوخة بنبالها ، واضنت جسمه ، وأضعفتْ قُوى عقله ، فانك تراه يقدر ان ينشد اشعارًا تعلّمها من أُمه في نعومة اظفاره ، مع انه لا يقدر ان يذكر شيئاً من الحوادث الواقعة في امسه . وهو ، كما قال احد المشاهير ، يتعلّم في مدة الاربع السنين الاولى من عمره اكثر مما يقدر ان يتعلّمه في سائر حياته . ولا يخفى انه يكون ، كلّ هذه المدة ، في مدرسة امه يرافقها في كل مكان وزمان وحالة . وقلّما نراهُ

---

١) الارض البائرة : التي لم تُزرَعْ ولم تُعمرْ .

مع ابيه ، او تحت تدبيره وعنايته ، لان الاب يكون في الغالب مشغولاً في السوق او في الحقل. ولهذا اذا قصدنا اصلاح العالم او جماعة او عائلة ، فلكي يكون لنا املٌ بالنجاح ، يجب ان نبتدئ اولاً باصلاح هذه المدرسة ، وان نُدخل فيها العلوم والمعارف ، والآداب السليمة الشافية ؛ ونبذل الجهد في تثقيف الام التي هي معلّمةُ هذه المدرسة وكتبُها وقوانينُها وروحُها وحياتُها وكلُّ ما لها . وحينئذٍ نرى الاولاد يرتضعون المعرفة والآداب مع الحليب ، ويستقون من ينابيع التمدُّن الصافية مياه الخصال والعلوم والاخلاق الرائقة ، بحيث تنتشر تلك المياه في اعضائهم الليّنة ، وتؤثر فيها كطابعٍ تأثيرًا لا يُمحى فيما بعد . وتراهم ، وهم في احضان امهاتهم او جلوس الى جانبهنَّ ، يدرسون المثالات الاولى الاساسية ، ومبادئ العلوم والفنون. فيتمتّعون باثمارها الشهية في طفوليتهم ، وبعد ذلك ، الى نهاية حياتهم . وفي هذا المكان المظنون من كثيرين حقيرًا لا طائل تحته ، يتصوَّر جنين العالم ؛ وفيهِ يولد ، ويترعرع . ومن هذا الابتداء نقدر ان نحكم : ماذا ، وكيف يكون العالم باسره . وعليه تتوقف سعادته وشقاؤه . لان المرأة هي التي تصوّر العالم كيفما شاءت ، وتضعه في القالب الذي تريده . لانه ما من عائلة صغيرة او مملكة كبيرة ، الّا وللمرأة التأثير الاعظم فيها . حتى اذا عمَّ النساءَ الجهلُ في مكان او زمان ، تراه قد انتشر واستولى بملء قوته على جميع اهله . وما يجعل الناس برابرة متمدّنين ، اصحابَ ديانةٍ او كافرين ، اشرارًا او صالحين ، علماء او جاهلين ، الى غير ذلك ، انما هو المرأة . وهي سيّدة الكون ، وقالبه في طفوليته ، ومرآته وقدوته في صباه ، وحكَمته وقائدته في شبابه ، وراحته وبلسمه في شيخوخته . وتراها عند ما يقع الولد على صدرها ،

او يجلس الى جانبها ، تشغل اذنيه وسائر حواسه بما لذّ لها ، ووافق ذوقها وعادتها . وتفيض عليه بسخاء ورغبة إما ما راق وعذب من مياه تعليمها وآدابها ، وإما سمًّا زعافاً من مجاري جهلها وحماقتها . وعلى ذلك يكون العالم ، في معرفته وآدابه وروحه وطباعه واخلاقه وهلمّ جرًّا ، نظيرَ امّه . ويا ليت شاعرنا قال : « ومن يشابه امّه فما ظلم » . حتى قال احدهم : « اخبرني ما هو الانسان وانا اخبرك ماذا كانت امه ! » . وهو مسلّم بالتجربة والاختبار انه ، كما تقدّم ، لا يمكن وجود علم في عامّة الرجال من دون وجوده في عامّة النساء ، كما انه لا يمكن وجود نساء عالمات في عالَم من الرجال جاهل . وما هي النتيجة من ذلك جميعه الا ان فوائد تعليم المرأة لاولادها عظيمة لا تُقاس ولا تُقدَّر .

فوائد العالم

ولا يخفى ان كل ما سبق ذكرهُ من فوائد تعليم النساء لمن تقدَّم يرجع الى العالم بالجملة . لان العالَم مؤلّف من الافراد والعيال ، ومن شأن المؤلّف ان يكون بحسب اجزائه التي تألّف منها . ولعلّنا لا نحتاج الى التفصيل في ذاك ، بعد كل ما تقدَّم في هذا المعنى .

كلمتان

للمرأة المتمدّنة

ولكن قبل الانتقال من هذا البحث اقول كلمة للمرأة المتمدّنة : ن كونها في العالم عضواً مفيدًا ومهماً بهذا المقدار للجماعة ، لا يجب ان يوقعها في ورطة العُجب والكبرياء ؛ او يحملها على رفع رأسها على رُجلها ، ولو كانت اعلم منه . لان العرضيّات لا ينبغي ان تبطل الجوهريات .

ومنزلة المرأة من الرجل معلومة لا يجوز لها تخطّيها ومجاوزتها في احدى الاحوال .

للمرأة غير المتمدّنة

واخرى المرأة الغير المتمدّنة : ان كرامة المرأة المتمدّنة ومقامها يختلفان عمّا لها[1] . ولهذا لا يحقّ لها ان تدّعي لنفسها جميع ما ذكرناه للنساء من الحقوق ، او تتوهّم انها قادرة على مباشرة كلّ ما خصّصنا المرأة به من الاعمال . وفي هذا القدر كفاية لمن يعتبر .

اضرار جهل النساء

اما الاضرار الناتجة من جهل المرأة فمن جملتها : فساد ذوقها . لانها تستحسن ما يستهجنه الذوق السليم من امر الملبوس ، والزينة ، والحركات . فتراها تخترع وسائط شتّى لاجل تحسين قدّها ، او لونها ، او هيئتها ، كما تدّعي ، غيرَ مرتضيةٍ بما اسبغهُ عليها من ذاك باريْ الطبيعة الحكيم . وتبذل جهدها في ان تجعل نفسها بمنزلة لُعَيبة[2] للفرجة ، او شرك يُصطاد بهِ الناس ، غير عالمة ان ذلك انما يزيدها شناعةً وقبحاً ومقتاً .

ومنها فساد عقيدتها . لانها تصدّق خرافات ، وتعتقد بتشاؤمات لا يقبلها العقل الصحيح ، بل تدلّ على صغر عقلها وحماقتها . وذلك كالإصابة بالعين ، ونبيح الكلب ، وعواء الثعلب ، وهلمّ جرّا مما اشتهر عنها في كل مكان وزمان . ومن اراد الوقوف على ذلك فليطلبه في الكتاب الكبير

---

١) لها : الضمير للمرأة غير المتمدّنة

٢) لُعيبة . تصغير لُعبة : كل ما يُلعَب به .

المنسوب الى النساء الذي لا يوجد منه ولا صفحة واحدة في حوزة المرأة المتمدّنة . او يسأل عنهُ العجائز اللواتي قرأنهُ وعلّمنهُ في مدارسهنَّ .

ومنها فساد آدابها كما يظهر في كلامها وتصرّفها بين الجماعات . ومعلومكم ان صراخ النساء في الاعراس واوقات الفرح ، وولولتهنَّ في المآتم وازمنة الحزن ، مما يدلّ على شدَّة جهلهنَّ وابتعادهنَّ عن درجة التمدّن والآداب ابتعادًا قاصياً .

ومنها فقدان المحبة الطبيعية حتى نحو اولادها ، ومما يثبت ذلك هلاك الآلاف الكثيرة في الهند من الاولاد الذين تتلطّخ ايادي امهاتهم وتتضرّج اذيالهنَّ بدمائهم كل سنة .

ومنها فوات كل ما سبق ذكره من فوائد تعليم المرأة .

ولا ريب ان الاضرار الحاصلة من المرأة الجاهلة لمن تقدَّم ذكرهم(١) هي اعظم بغير قياس من الفوائد الناتجة لهم من المرأة المتمدّنة كما يظهر عند الاعتبار . وبالاجمال اقول ان من اراد الوقوف على المضرّات الناجمة من جهل النساء ، فلينظر الى المرأة الجاهلة نفسها في كلامها ، وملبوسها ، وتصرّفها داخلًا وخارجاً ، وآرائها وافكارها، في الدين والدنيا، وآدابها وميلها وعواطفها ، وبيتها وزوجها واولادها ومعارفها ؛ وحين تفرح او تحزن ، او تُزَفّ او تُوضَع على مرتبتها ، الى غير ذلك من صفاتها واعمالها وحركاتها ومتعلقاتها . ومن حقّق النظر في ذلك يعذرنا من التفصيل فيهِ او التمثيل ، ولا يكلّفنا بيّنات تُثبت ان المرأه ، دون علم ، شرّ عظيم في العالم ، اذا لم تكن اعظم شرّ يمكن تصوّرهُ

---

(١) من تقدَّم ذكرهم : اي المرأة نفسها ، وزوجها ، واولادها ، والعالم .

النتيجة

فالناتج مما تقدَّم انهُ ، اذا حاولنا اصلاح قوم ، يكون تعليم النساء هو الدرجة الاولى من السلَّم ، والباب الذي يجب ان يُفتح اولًا ، مبتدئين في ذلك من صغرهنَّ. واما الذين يتركون النساء وراءهم ويأخذون في تعليم الصبيان او الشبان ، فهم كمن يضع رجلًا على الارض واخرى في السحاب. وتراهم في الغالب يقصرون في مطلوبهم ، وبالكدّ[1] يكون جهدهم كافياً لاصلاح ما تفسده النساء . لانهم كلما بنوا صومعةً تراهنَّ يهدمنَ برجاً ، وكلما رفعوهم[2] درجةً تراهنَّ يحططنهم درجات . فان ما يبنيه الرجل في مائة عام قد تهدمه المرأة في سنةٍ واحدة . وكل ذلك قد ثبت بالتجربة والاختبار ، وعلى من شكَّ تحقيق النظر وجودة الاعتبار . ولعلَّ ما قلته كافٍ للدخول في موضوع كهذا لم تجرِ فيهِ اقلام اسلافي من اهالي البلاد . وخلاصته : وجوب تعليم النساء بناءً على ان التي تهزّ السرير بيمينها هي التي تحرّك المسكونة بذراعها .

« قُدّم سطلب العمدة العاملة (في الجمعية السورية الاولى) وذلك في بيروت داخل جلسة مفتوحة في ١٤ ك١ سنة ١٨٤٩ مسيحية » وقد نُشر اولًا في مجموعة اعمال الجمعية المذكورة سنة ١٨٥٢ ، وثانياً ملخصاً في الجنان (١٣ [١٨٨٢] ٢٠٧–٢١٤) . وللمعلم سليم ، ابن المعلم بطرس ، خطاب في الموضوع نفسه بناه على القول : « ان التي تهزّ السرير بيسارها تهزّ الارض بيمينها » القاه في مدرسة البنات السورية الانجيلية ليلة اعطائها الشهادة لتلميذاتها في ١٥ حزيران ١٨٨٣ ، ونشره في مقتطف السنة نفسها .

---

١) بالكدّ : اي بالتعب والجهد. وتقول العامّة : « بالكاد »

٢) رفعوهم : ضمير المفعول للشبّان .

آداب العرب

١٨٥٩

المقدمة

ايها السادة

الموضوع آدابُ العرب ! وان شئتم فقولوا : علوم العرب ، او فنون العرب ، او معارف العرب[١] . ولكن قبل الشروع في الكلام على هذا الموضوع ، الذي ينبغي ان يكون لذيذاً ومفيداً لكل من له رغبة في الوقوف مدققاً على حقائق الامور ، يلزمنا ان نذكر بعض قضايا نظير مقدّمات له ؛ وذلك على وجه الاختصار فنقول:

شروط العلم

اوّلا — ان العلوم من شأنها النموّ بالتدريج كالحيوان والنبات . ومع ان هذا النموّ قد يكون جزئيًّا في عقل واحد ، لا بدّ من اجتماع عقول

---

١) العلوم والفنون والمعارف : اسماء مظاهر مختلفة لمنتوجات الفكر البشري التي تشملها لفظة « آداب » اما الفرق بين هذه الاسماء الثلاثة فهو ان العلم مجموعة معارف تسير على اصول مرتبة وقوانين معروفة تؤلّف وحدةً تامة تنظر في موضوع واحد ، كعلم النحو او علم الطبيعة مثلًا . اما الفنون فكان يُراد بها فروع العلوم المختلفة ، واسع معناها ، منها ادبية محضة كفنّ الشعر ، ومنها صناعية كفنّ البناء ؛ وهذا القسم الاخير كان العرب يعبّرون عنه بكلمة صناعة جمعها صنائع ، ومنها « الصنائع الفائقة » التي يستعملها ابن خلدون حيث نستعمل اليوم « الفنون الجميلة » (راجع الروائع ١٤ : ٣٤)

كثيرة للحصول على المطلوب على احسن منوال ، بحيث تكون نتائج بحث وجهاد العقل الواحد في امر ما ميسورة الحصول لعقل آخر او اكثر. وهذا الاجتماع لا يتيسّر الحصول عليه دون اجتماع القبائل والشعوب ، وامتزاجهم معاً ، بحيث لا يفوت قوماً فوائدُ قوم آخرين . وكذلك من شأن العلوم ان لا تُورَث خِلافاً للاملاك والنقود ، بل انما تستلزم اجتهاداً شخصياً . وهي كالضيوف لا تثبت الا عند من قام بحقّ ضيافتها .

ثانياً — ان العقل البشري انّما يحصّل العلوم بواسطة الحواسّ ، على سبيل التعلّم والاستقراء[1] ؛ ومن شأنه ان لا يسع اموراً متضادّة في وقت واحد . ومن ثَمَّ كان لا يمكن اجتماع العلم والرذيلة معاً . وبما ان العقل لا يجدُّ في تحصيل شيءٍ الا لغاية ، ولا يحتمل مشقّة الا اذا كانت لذّة ما يطلبه اقوى منها ، قلّما تُطلَب العلوم لذاتها . والعقل قد يكون في حالة السُبات[2] او الانتباه من هذا القبيل . ولا يخفى ان المناخ ، والعادات الخصوصية ، لها تأثير شديد في العقل ؛ وانه يوجد تفاوت في العقول من جهة الاستعداد للعلوم بين قوم وقوم ، كما يوجد بين الافراد . وما اشدَّ تأثير الميل ، والحكم السابق ، في العقل من جهة تحصيل العلوم ، ومعرفة الحقائق

ثالثاً — لا بدَّ للعقل من وسائط اسعافية خارجة عنه لاكتساب العلوم . فمن اعظم هذه الوسائط الانتقال والسياحة من مكان الى مكان ،

---

١) الاستقراء : مصدر استقرى الاشياء : تتبعها ليعرف خواصّها واحوالها . والاستقراء عند المنطقيين اثبات الحكم لجميع افراد الكلّي بواسطة ثبوته لبعضها . وذلك لان مقدّماته لا تحصل الا بتتبع الجزئيات . وعكسه الاستنتاج

٢) السُبات : النوم ، وعند الاطباء : نوم طويل ثقيل يستغرق فيه النائم .

ومطالعة الكتب ، ووجود الآلات التي لا يمكن الحواسّ التوصل الى المطلوب بدونها ، والاسباب المحرّكة التي تنبّه العقل وترغبه في ذلك ، والمثال[1] ، والحماسة المغروسة طبعاً في الانسان. ولا يخفى ان حرية الفكر هي من اكبر المطلوبات لإدراك الحقائق وتحصيل العلوم ؛ لان الفكر المستعبَد لا يمكن ان يكون فيهِ استعداد كما يجب للعلوم. وبما ان الخطب تُحسَب ، وقد وجدت في البلدان المتمدّنة ، من اكبر الوسائط واحسنها لنشر المعارف بين العموم ، قد تحرّكَ البعض من الذوات المعتبرين من سكان هذه البلدة[2] ، من افرنج وابناء عرب ، الى الانتظام في عمدة تعرف « بعمدة الخطابات » لاجل تمكين الطلبة الراغبين في الحصول على هذه الواسطة . وباستدعاء وطلب هذه العمدة ، قد وقفت الآن امام سيادتكم[3] لاجل صرف حصّة من الوقت في البحث عن الموضوع المتقدّم ذكرهُ ، وهو آداب العرب . فاقول :

التفاخر بعلوم الجدود

اننا كثيراً ما نسمع ابناء العرب يتباهون متفاخرين بكون اجدادهم الاقدمين هم الذين انعموا على العالم بالعلوم والفنون ، مع ان الاكثرين منهم لم يتيسّر لهم الوقوف على الحقيقة . ونحن شديدو الاعتقاد بصحة قول بعض الافاضل :

---

١) المثال : اي القدوة الظاهرة من الغير ، كمثل العلماء .

٢) هذه البلدة : ي بيروت .

٣) سيادتكم : صفة السادة الحاضرين . وتُحفظ هذه اللفظة اليوم لخطاب الاسقف . ويستعمل عوضها في موقف الخطابة كلمة « حضرتكم » مثلاً .

لا تقلْ اصلي وفصلي ابدًا انما اصل الفتى ما قدْ حصل[1]

وبان وصول اجدادنا الى اعلى طبقة من العلوم لا يجعلنا علماء ، ولا يوجب لنا حق الافتخار ، اذا لم نكن نحن انفسنا كذلك . فقد رأينا ان نذكر بعض قضايا تاريخية من هذا القبيل يتبيَّن منها مقدار جهاد المتقدّمين، ودرجة فضلهم في هذا الامر ، ويستعين بها المتأخرون من ابناء هـذا الزمان على الوقوف على الحقيقة . وعسى ان تكون وسيلة لحثّهم وترغيبهم في اقتفاء آثار اسلافهم . وقد قسمنا خطابنا هذا الى ثلاثة اقسام ، وهي الآتية :

القسم الاول

في حالة العلوم بين العرب قبل ظهور الاسلام

يصوّر المعلم بطرس في هذا القسم القصير حالة العرب الجاهليين من حيث العلم ، وذلك كما وصلت الينا عن طريق قدماء المؤرخين

القسم الثاني

في حالة العلوم بين العرب بعد ظهور الاسلام

يبدأ هذا القسم بقول القاضي صاعد بن احمد الاندلسي « ان العرب في صدر الاسلام لم تعتنِ بشيء من العلوم الا بلغتها ، ومعرفة احكام شريعتها ، حاشا صناعة الطبّ » . وبعد ان يذكر الشواهد على احتقار العرب للعلم في اول امرهم ، يقول :

---

١) البيت لابن الوردي ، في لاميته المشهورة .

ابتداء رغبة العرب في العلم

ولكن نفورهم[١] من الامور العلمية كان يتناقص بالتدريج ، بقدر امتداد ديانتهم وملكهم . ولا ريب ان امتلاكهم للبلدان السعيدة ، التي كانت مقرًّا للذوق ، والرونق القديم ، ولّدت فيهم روح لطف وتمدّن . فكان تقدّمهم في هذا الامر سريعاً وعجيباً ، كما كان في ميادين الحرب . ولما كان الجهل والتبَرْبُر مستوليَيْن بسطوة شديدة على كل قسم من البلدان الافرنجية ، وذلك بسبب الحروب الثائرة ، والمنازعات المتمكّنة بين ملوكها ورعاياها ، بحيث لم يبقَ للعلوم والآداب سوقٌ ولا محام ، وجدت العلوم والفنون في مدارس العرب ملجأً تستظلّ فيه مرتاعة من غدر تلك الازمان ، وغباوة تلك الأجيال المظلمة . ومع ان آداب اليونان اقتضى لها اتعاب متوالية مدة ثلاثمائة سنة حتى وصلت الى ما وصلت اليه في ايام پاركليس[٢] ، نرى ان رغبة العرب ونشاطهم في اكتساب العلوم ونجاحها كانا شديدَين بهذا المقدار حتى انهُ لم يمضِ الا مائة سنة او اكثر قليلًا بين اعمق توحّشهم وبربريّتهم وبين امتداد العلوم وانتشارها في ممالكهم المتسعة . فان عمر بن الخطاب امر باحراق مكتبة الاسكندرية سنة ٦٤١ للمسيح[٣] ، وسنة ٧٥٠ ارتقى العبّاسيّون المحامون عن العلوم الى تخت السلطنة . وذلك من اغرب

---

١) نفورهم : الضمير للعرب .

٢) پركليس : (٤٩٢ – ٤٢٩ ق . م .) خطيب وسياسي يوناني شهير ، حكم اثينا فملأ شوارعها بالآثار الفنية واستحقّ بحمايته للعلوم والفنون ان يلقّب عصره باسمه ، فقيل : « عصر پركليس »

٣) لقد دُرست مسألة حريق مكتبة الاسكندرية درساً وافياً في المشرق ، فمن شاء فليراجعها (١٣[١٩١٠]٩٥٧) و(١٤[١٩١١]٣٨٨) و(١٥[١٩١٢]٩١٢)

واعجب الحوادث التاريخية ، حتى ان اوربا نفسها صارت مديونة لمخالفي ديانتها وحريتها باثمن مثالاتها في العلوم والفنون .

دور العرب في نقل العلوم

ثم يذكر ما بلغت اليه العلوم العربية على عهد الخلفاء العباسيين ، وينوّه خاصة بذكر المنصور ، والرشيد ، والمأمون الذي يسمّيه « اغسطوس الآداب العربية » ، والواثق ، والمستنصر مؤسس المدرسة المستنصرية . ويتتبع الآداب العربية الى مصر ، فالمغرب ، فالاندلس ويستنتج :

فما تقدّم بيانه يتّضح لنا شدّة حرص العرب ، في تلك الايام ، على اكتساب العلوم والآداب ، واجتهادهم في نموّها وانتشارهـا . واذا حقّقنا النظر في ما وصل الينا من فضلات علومهم ، وآثار جهادهم ، نرى انهم ، وان يكونوا قد اخذوا علوماً وفنوناً كثيرة عن اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقتباس ، لا يمكن ان يُسلّم بانهم انما كانوا متقلّدين لا مخترعين كما يزعم بعضهم لاننا نرى ان العلوم نفسها التي سبقت الاشارة الى انهم ترجموها من لغات اجنبية ، قد اخترعوا فيها وزادوا عليها اموراً كثيرة جداً .

وهنا يعدّد العلوم التي اخترع فيها العرب ، او زادوا عليها ، فيذكر الطبّ ، والكيمياء ، . . . الى ان يصل الى

اللغة

فاننا اذا امعنّا النظر في العلوم المتعلّقة باللغة العربية التي كانت ، قبل الاسلام، لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرّقةً على السنة قوم لم يكن لهم التفات الى العلوم والفنون، ولا حظّ في صناعة الحروف والتأليف، نرى أن العرب قد صرفوا الهمة في ايجادهـا . فوضعوا لهذه اللغة العجيبة ضوابط

وقوانين لاجل صيانتها من الفساد ، ورتّبوا لها كتبَ لغة مشهورة قد جمعوها عن السنة العرب لاجل حفظها ، وجعلوا لها فنوناً كثيرة مستظرفة كالمعاني ، والبيان ، والبديع ، والعروض ، وهلمّ جرًّا ، لاجل تهذيبها وتحسينها . وكذلك الاشعار ، التي وجد عند العرب منها اكثر مما وجد عند باقي شعوب العالم ، لم تكن الا من نتائج اجتهادهم وجود قريحتهم .

اهمال العرب نقل الشعر الاجنبي

ومن الغريب انهُ مع وجود أشعار هوميروس وورجيليوس وغيرهما من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين ، لا يوجد في اشعار العرب شيء مقتبس منها [1]

ثم يتتبّع تآليف العرب في العلوم الكثيرة ، ويسرد اسماء بعض مشاهيرهم فيستنتج :

صفات العرب في درسهم للعلوم

اولًا — جودةُ العقل العربي ، وحسنُ استعداده لتحصيل العلوم ، ولاسيما ثلثة انواع منها : وهي العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية ، والعلوم اللغوية . حتى انه لا يوجد في العالم قوم يقدرون ان يفوقوا العرب ، حتى لا نقول ان يدركوا طبقاتهم ، فيها .

---

١) لقد جال في هذا الموضوع المهمّ العلّامة سليمان البستاني في مقدمته الشهيرة للالياذة فشرح اغفال العرب نقل الشعر الاجنبي الى لغاتهم ، فكان مرجع الاسباب التي ذكرها الى ثلاثة : الدين ، واغلاق فهم اليونانية (او غيرها من اللغات الاجنبية) على العرب ، وعجز النقَلة عن نظم الشعر العربي . ومن شاء التوسّع في هذا الموضوع ، فليراجع مقدّمة الالياذة (ص : ٦٣ — ٦٨)

ثانياً — ثباتُ العرب وتجلّدهم في مقاساة المشقّات والمصاعب المقترنة طبعاً بتحصيل العلوم ، وذلك لدى وجود الاسباب المحرّكة اليها . ويزيد ذلك وضوحاً اذا اعتبرنا قلّة الوسائط وضعفَها في تلك الايام. فان البُخار ، والسيّال الكهربائي كانا حينئذٍ غير خاضعَين للانسان. وكانت المطبعة التي تُحسَب من اكبر قوات العالم ، والنظارة المكبرة التي قلبت كثيراً من مبادئ الاوّلين من اساساتها لم تزل مستورةً تحت ظل الغوامض.

ثالثاً — فضلُ العرب على العالم في هذا الامر ، وذلك من اوجه عديدة: منها انهُ فيما كانت العلوم والآداب في خطر الفقد والتلاشي بسبب الحروب ، والمنازعات ، والفتن الاهلية في العالم الغربي ، وجدت لنفسها في مدارس العرب ملجأً تأوي اليه فحافظ العرب على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التي تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة . ولولا وجود هذه الحلقة لكنت ترى خلاء متسعاً بين العلوم القديمة والعلوم الحديثة لم يكن سبيل الى ملئهِ.

رابعاً — فضل اللغة العربية وطواعيتها في قبول العلوم دون احتياج الى استخدام لغات اجنبية ، الّا في ما ندر . وبما ان اللغة هي من اقوى الوسائط لوجود الآداب ، وانتشارها بين اهلها لا بأس اذا توسعنا قليلاً في الكلام على اللغة العربية وما يتعلق بها على وجه الاستطراد . فنقول :

حالة اللغة في ايام الخطيب

ومع اننا نرى العجم ، والتتر ، والافرنج ، من الجهة الواحدة آخذين في توسيع دائرة لغاتهم ، وادخالها بين العرب ، والمتفرنجين من الجهة

الاخرى آخذين في إفساد و إماتة لغة امهم بواسطة ابدالهم كلماتها المأنوسة بكلمات اجنبية نافرة لا تلبق[1] باللغة العربية، كما ان ملبوس اهلها لا يلبق بالعرب .

وهنا بعد ان يشجب استعمال بعض الكلمات الاجنبية مما له مرادف في العربية ، يقول :

على انهُ كما ان الناس تحتاج الى الناس، كذلك اللغات تحتاج الى غيرها . ولكن يجب الاقتصار على ما لا وجود لهُ في اصل تلك اللغة مما يزيدها قوّة وحسناً ، لا تنافرًا وثقلاً .

هذا ، ولا ينبغي ان نغفل عن تلك الكلمات النافرة الميتة الموجودة في قواميس اللغة العربية ممّا لا فائدة منه للعرب ، الّا التثقيل على الذهن العربي والقلم الشرقي .

المترادفات

وممّا لا يُشَكّ به ان منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود في اللغة العربيـة هو اختلاف القبائل التي تكلمت بهذه اللغة . ولا يُصدَّق ان بني قريش ، اصحاب اللغة الفصحى ، كان عنـدهم خمسمائة اسم للاسد . والظاهر ان الذين جمعوا متفرّقات هذه اللغـة عن ألسنة العرب ، فلاجل شدة اهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة دون ان يفقـد منها شيء ، جمعوا كل ما وجدوه من موادّها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة ، واصطلاحات جارية عندها دون غيرها . والبعض يحسبون ان كثرة المترادفات في العربية غنى لها ؛ والحال ان ذلك يجب ان لا يُحسب

---

١) لبِق ولبُق : الثوبُ ونحوه بفلان : لاق به فهو لَبِق ولبيق .

غنى لانه لا يفيد زيادة في المعـاني التي هي المقصود الاصلي من اللغات . واللغة التي يوجد فيها الفاظ كثيرة لمعنى واحد ، مع انهُ يوجد معانٍ كثيرة لا الفاظ للتعبير عنها ، هي في الحقيقة فقيرة لا غنية ، واهلها فقراء لا اغنياء .

وهنا يذكر بعض الحوادث التي تؤيد هذه الملاحظة في المترادفات التي هي غاية في الدقة خصوصاً لسبقها تحقق الكثيرين من كتَّاب عصرنا الحالي .

تأثير الإبل في اللغة

وبمـا ان العرب كانوا يكرمون الابل ويعظمونها ، لانهم كانوا يكتسون بوبرها ، ويغتذون بلحومها ولبنها ، وكانت هي تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات بريَّة ، او مراكب بحريَّـة ، ترى لغتهم مشحونة من الالفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم ، العظيم القدر . فلا يوجد عضوٌ للناقة الا وله اسم خاص ، ولا توجد لها حالة او معنى الّا وقد اوجدوا لها كلمة تدلّ عليها ، حتى صرنا اذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه الوفاً من الكلمات التي تنبعث منها رائحة النوق والجمال ، ويمكننا ان نقول ، على سبيل المبالغة ، انهُ يوجد في اللغة العربيـة عبارات للناقة تكاد تساوي وبرها عدداً . فما هي الفائدة للحضر من هذه العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الابل ؟ وبقرقعة دواليب المراكب النارية عن عجيجها ؟ وبرائحة الفحم الحجري عن رائحتها ؟

وجوب الاصلاح

فهنا محل واسع للاصلاح ونقل ما يمكن نقله من تلك العبارات البدوية الى موضوعات حضرية يضطرُّ الى وسائط التعبير عنها كل من القاهُ

الدهر في وسط جماعة متمدنة .

علوم اللغة

هذا ، وانّ حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلًا ليست باقل احتياجاً من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل. فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلباً لنوال ما يترتّب عليها من امر المعيشة . وذلك لان كامل حياتهم بالكدّ يكفي[1] لتحصيلها على حقها. وهذا من جملة لاسباب التي تجعل اهلها يهملونها بالكلية ، او يتخذون لغة او لغات اجنبية ضرائر لها. وهل يليق بالانسان الذي انما جُعِلت لهُ اللغة واسطةً وباباً للعلوم ان يجعلها غايةً ، ويصرف حياته كلها ، واقفاً امام ذلك الباب يتفرّج على نقشه وزخرفه الخارجي ، مع ايقانه بانّ وراءهُ تحفاً قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الالباب . وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بان منهج الأقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها ، وادخالهم بين تلك القواعد ابواباً من كل العلوم والفنون ، وتعليلاتهم المستطيلة التي يحسبها البعض منزلةً مع انها ليست الا مناسبات حصلت بعد الوقوع ، تلهي ابناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية ، وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة. ولا شك ان ذلك هو من جملة الاسباب التي اوجبت فقد العلوم من بين العرب. وممّا لا ريب فيه انه يجب وضع قاموس اللغة العربية[2] ، والعلوم المختصة بها بالذات ،

---

١) بالكدّ يكفي : اي بالتعب والجهد . ويقول العامة : « بالكاد » يكفي .

٢) حقّق الخطيب شيئاً من هذه الآراء بوضع مؤلفاته العديدة ولاسيما قاموسه الشهير « محيط المحيط » الذي كان ظهوره سنة ١٨٧٠ ، خطوة واسعة في تسهيل اللغة

في قالب يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغريبة في المدة المذكورة يشهد بانه يجب ألّا يصرفوا اكثر منها في تعلّم اصول لغة قد رضعوها مع اللبن . ولكن اذا وُجد قومٌ من اصحاب الغنى والخطر يلذّ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش عن المواد السالفة ، ويقصدون ذلك بالذات ، فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الامر ونكلفهم المحافظة على اللغة القديمة ؛ ولندع تكاكؤَ الاعرابي[1] واساجيع الحريري[2] ، وفيروزابادي‌ات الفيروزابادي[3] موضوعات لتاملاتهم الدائمة ، ودرسهم الابدي . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلة

وهو مستغنٍ عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنموّ معارف اهلها ، وفنونهم ، وصنائعهم ، ومتاجرهم ، واختراعاتهم ، ومن ثمَّ كان وضع حدٍّ للالفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه . لانه اذا وضع حدّ معلوم لالفاظ لغةٍ ما ، كما هو الحال في اللغة العربية التي قد دخل فيها ما دخل منذ اجيال كثيرة ولم يبقَ باب الدخول غيره ،

---

١) اشارة الى ما يُروى عن ذاك الاعرابي القائل لمن احتمع حوله: « ما بالكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤَكم على ذي جِنَّة ؟ افرنقعوا عني ! »

٢) الحريري: (ابو محمد القاسم بن علي) من اشهر علماء اللغة والمنشئين في العصر العباسي الثالث († ١١٢٢) والمراد «بأساجيعه» انشاؤه المسجّع في «مقاماته» المعروفة .

٣) الفيروزابادي: (ابو طاهر محمد بن يعقوب) من اشهر علماء اللغة في طور الانحطاط († ١٤١٣) ترك معجماً شهيراً سمّاه « القاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط » . والمراد « بفيروزاباديّاته » غرائب الكلمات التي جمعها .

يلتزم اصحاب تلك اللغة عند امتـداد المعارف والصنائع عندهم ، لاجل التمكن من استخدام الفاظ للتعبير عما هو في انفسهم ولقضاء مصالحهم ، ان يلتجئوا الى لغة اجنبية ، او يخترعوا كلمات جديدة حوشية .

اللغة الدارجة او العامّية

وهكذا تولّدت ، عند العرب ، لغة دارجة بينهم تختلف كثيراً عن لغة الكتب . وهذه اللغة الدارجة تراها تتهدّد دائماً اللغة الاصلية . واذا طال الحال عليها هكذا تُميت كثـيراً من الفاظها فوق ما اماتته ، فيلتزم العرب في آخر الامر ان يفعلوا باللغة العربيـة كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ، ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية . فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء واصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج . ولا يمكن ان يُتصوّر حصول خسارة للعرب اعظم من هذه . ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع في هذه الايام، واملنا بالزيادة على زيادتها في ما يأتي يجعلان لنا شيئاً من الطمأنينة من هذا القبيل .

ثم يتابع الكلام في تطوّر الآداب عند العرب .

انحطاط الآداب

فاين كان العرب ? واين هم الآن ? قد مضى جيل آدابهم الذهبي ، وخيّم عليهم جيلها المظلم . وكان ابتداء جيلها المظلم اواخر القرن الرابع عشر ، وما زال ينمو ويتزايد حتى عمّ البلاد والعباد . اين الشعراء ? اين الاطباء ? اين الخطباء ? اين المدارس ? اين المكاتب? اين الفلاسفة ? اين المهندسون ? اين المؤرّخون? اين الفلكيون ? اين كتب هذه الفنون ? . . .

ابتداء النهضة

دور الغربيين في النهضة — فضل المرسلين

ولكن اما تذكر هذه العلوم الأُلفة القديمة ، وترجع فتزور ديارنا وتخفّف شقاء العرب ، وتصلح بلادهم واحوالهم . اننا اذا نظرنا الى القرن التاسع عشر ينفتح لنا باب للامل . فلتبشر بنو سام لان اولاد عمهم ، بني يافث[1] ، قد ابتدأوا يُرجعون لهم ما اخذوه منهم ، مطبوعاً وعلى ظهرهِ اكتشافاتُهم المتأخرة نظيرَ فائدة عن مدة اربعمائة سنة ؛ وان يكن في اكثر الاوقات منغَّصاً ومعاقاً بما يظهره البعض من اولاد عمنا من العتوّ والاستكبار على جنسنا الشرقي ، والاستهانة بهِ . نحن سلَّمناهم العلوم من يدنا اليسرى عن طريق واحد ، واما هم فآخذون في ارجاعها لنا بيدهم اليمنى عن طرق شتى . ويجب ان نضع المرسلين الامركان ، والرهبان والراهبات اللاتينية ، وعلى الخصوص اليسوعية منهم ، والعازارية ، في الرتبة الاولى من هذا القبيل . لان حسن قدوتهم وفضل مساعيهم في هذا الامر بواسطة مدارسهم ومطابعهم ظاهران لا ينكرهما الّا من كان ناكر الجميل ، او من اصحاب الغرض والتعصب .

دور محمد علي

وقد فعل المخلَّد الذكر محمد علي باشا في هذا الجيل بكتب الافرنج ، ما فعله كرلوس الكبير بكتب العرب ، فأمر بترجمة اطايبها الى اللغة العربية ، وسلّمها مع كثير من الكتب العربية القديمة للمطبعة المعتبرة

---

١) بنو يافث : الاوربيون

الموجودة في بولاق من الاقليم المصري ، فخرج منها كتب شتى في اللغة، والطبّ ، والطبيعيّات ، والتاريخ ، وهلمّ جرّا . فزيّن لغته العربية بكامل الفنون والصنائع من العربية والافرنجية ، وعسى ان يحذو انجاله وحفدته حذوه في هذا الامر[1]

موقفنا تجاه عمل الافرنج

وهكذا ترى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادئ حقيقية قادمة الينا من كل فجٍّ عميق . وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة ، والمدد المديدة ، يمكن العرب ان يكتسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والإحكام . فالعلوم اذًا قد اكملت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية ، واسلامبول ، والهند ، وبيروت وكما ان الافرنج لم يستخفّوا بآداب العرب ، في ايام جهلهم ، لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب ، كذلك لا يليق بالعرب ان يستخفّوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجية . بل يليق بنا ان نترحب بالعلوم دون نظر الى من يعطينا اياها ، سواء كانت آتية من الصين او الهند او العجم او اوربا . وادّعاء البعض بأن العرب عندهم كل شيء يُحتاج اليه من العلوم والفنون ، لا يوجد برهان اقوى منهُ على عمق جهلهم . وكما ان العرب لا يأنفون ان يكتسبوا الصنائع من الافرنج، ويأخذون عنهم العادات من الحسنة والمستهجنة، لا ينبغي ان يستنكفوا من ان يكتسبوا منهم العلوم التي هي واحدة عند الجميع . . .

---

١) حقّق خلفاء محمّد علي هذا التمنّي افضل تحقيق باهتمامهم بالعلوم العربية ولا سيا جلالة فؤاد الاول ، ملك مصر الحالي .

القسم الثالث

في آداب العرب في هذه الايام

حالة العرب بالنظر الى الآداب

ان العرب في ايامنا هذه قنوعون جدّاً في امر الآداب. فانهم يكتفون بأقلها، ويحسبون انفسهم انهم قد وصلوا الى اعلى طبقات العلم، مع انهم لم يقرعوا بابه. فمن تعلّم منهم كتاب الزَبور[1] والقرآن، يقال انه قد ختم علمه؛ واذا تعلّم شيئاً من اصول الصرف والنحو، يقال فيه انه قد صار علّامة زمانه؛ واذا نطق بالشعر، فلا يبقى عندهم لقب يصفونه به. وما ذلك الا لان ظهور نور قليل في العاقل كافٍ لان يغشّي على عيني الجاهل؛ ولانهم الى الآن لم يقفوا على شاطىء اوقيانوس العلوم ويروا عظمته واتساعه. ومع اننا نعتقد بان عرب هذه الايم هم من نسل العرب القدماء، لا نرى فيهم ما رأيناه في اولئك المجاهدين من الثبات والجهاد في ميدان العلوم؛ ولا نقدر ان نسلّم بأن النسل قد فسد، وذلك لان جودة عقول العرب، وحسن استعدادها في هــذه الايام لتحصيل العلوم، يبرهنان النقيض. ولكن ذلك ناتج من احوال كثيرة واسباب متنوعة نودّ لو سمحت لنا الاوقات لبيانها، لكي نخفّف عمّن هم من لحمنا ودمنا اللوم الواقع عليهم من الاجانب، الذين لا نشكّ بأنهم كانوا وصلوا الى حالة اردأ من حالتنا لو ألقاهم الدهر في ظروف كظروفنا. ولكن مهما كانت

---

[1] الزَبور: في الأصل الكتاب على الإطلاق، ثم غلب على مزامير داود.

الاسباب ، فلا سبيل الى انكار كساد بضاعة العلم عند العرب ، وعدم رواج سوقها بين جماهيرهم ، وعلى الخصوص اكابرهم .

حالة الآداب نفسها عند العرب

ان الآداب عند العرب ، في هذه الايام ، هي في حالة انحطاط كلي :

اما العلوم اللغوية فاننا قلّما نجد احدًا من ابناء العرب يمكن ان يشار اليه بالبنان بانه يعرف لغتــه وقواعدها حق المعرفة . فانهم ، في الاكثر ، يكتفون من علم اللغة بحفظ بعض كلمات غريبــة ميتة يدرجونها في كتاباتهم واشعارهم بقصد اظهار معرفتهم ، والتمويه على الجمهور . وما تلك الا حَصًى صغيرة يتلاعب بها الجيل في ايام طفوليته .

واما المعاني والبيان ، وما يتعلّق بهما ، فمتروك حلّ مسائلها ، وفهم مؤلفاتها النفيسة الى همة ونشاط اجيال مستقبلة .

واما علم المنطق فيكفيه اعتبارًا وحفظًا عند اكثرهم قولهم فيه : « من تمنطق فقد تزندق »[1]

واما العلوم التعليمية كالحساب والهندسة ومتعلقاتهما ، فهذه يكتفون منها بالجمع والطرح ؛ ومن زاد عليهــا الضرب والقسمة ، وحفظ بعض مسائل بأجوبتها مما اوجده لهم الاقدمون ، يذيع اسمه في الآفاق انه من فحول العلماء . ويستغنون بالمقوّمين عن المسّاحين ، وبالبنّائين عن المهندسين .

واما علم الفلك فلا يوجد لهُ من محامٍ ولا حافظ ، وكأنــه علم لا

---

١) راجع ما قلناه في كلمة « زنديق » ص : ٣

فائدة منه للعرب ، لانهم يعلمون ان الشمس تغطس في البحر ، وان الكواكب فوق رؤوسهم، دون افتقار الى درس ولا عناء.

واما علم الطب فهو صناعة قد فُتحت ابوابها عفوًا لمن اراد ان يدَّعيها لنفسه ، وان كان لا يعرف القراءة ، بشرط ان يكون في حوزته ريشة ماضية لتقطيع اوصال العباد. وهي الصناعة الوحيدة التي يمكن الانسان ان يتعاطاها دون ان يتعلمها من استاذ. وأُلحِق بالطبّ علم الكيميا فانهُ قد تقهقر عند العرب الى حالته التي كانت لهُ قبل ان مدُّوا اليهِ ايديهم .

واما صناعة الانشاء فهي منحصرة في نقل بعض كتابات قد ورثناها من المرحومين . واما الخطب فهذه ميدان الديني منها المنابر ، وميدان الدنيوي القهاوي. ولا يدخل في هذا الميدان الا من كان خشن الصوت ، حسن الذاكرة يحفظ بعض حكايات من قصص السندباد البحري وبني هلال وما اشبه ذلك من الحكايات الموجودة في كتاب الف ليلة وليلة وغيره ، ويحكيها على من حضر في القهاوي تكملة للكيف على حقهِ ، ولكي تكون دليلًا على اصل متروك.

واما علم النبات فهذا متروك لرعاة المواشي والفلاحين . واما علم الزراعة ، الذي وصل الى اعلى طبقاته عند اجدادنا ، فهو الآن متروك لرحمة النقل والتقليد .

واما علم التاريخ فهذا مفقود ليس من يعتني به . واما علم الجغرافيا فيكتفي الواحد منهم بمعرفة اسم بلدته وطريق بيته ، ويخشى ان يصيبه دوار، اذا تعلَّم ان الشمس ثابتة والارض تدور .

واما الشعر الذي من شأنه ان يتقدَّم جنازة الآداب ، او يبشِّر

بولادتها[1] ، فبابه مفتوح عفوًا لمن اراد الدخول ؛ وكل من حافظ على القوافي وألبس معاني الاقدمين اخلاق ثياب[2] فهو شاعر ؛ ولكن اذا ابدع بان يأتي بكلمات غير مفهومة ، واظهر مهارةً وبراعةً في التضمين والاقتباس، حتى لا اقول في السرقة من الاقدمين ، فهو خِنذيذ[3]

وهكذا القول في باقي العلوم. وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل ولا يريدون ان يتعبوا انفسهم بالفحص والتحقيق لا يُؤمَّل تقدّمهم في العلوم والفنون.

لا تَهِج ايها الدم العربي، ولا تغتظ من الحق ، عندما تسمع واحدًا مشتركًا فيك يبين لك حقيقة حالك ، لا على سبيل التقريع والطعن ، بل لاجل ايقافك على الحقيقة ، عسى ان يكون ذلك واسطة لانتباهك وتقويتك في طلب العلم والتجلد في ميدانه . وسوف تسمع مني كلامًا لطيفًا يستر شيئًا مما تقدّم، كما ان حالك الحاضرة تبطل حقّك في الافتخار بما سبق ذكره من فضل اجدادك .

وهنا يختم المعلّم بطرس بذكر « الوسائط لاكتساب الآداب » فيشير الى المطابع والمدارس والجمعيّات الادبية الموجودة في عصره ، مما يراه المطالع مفصّلًا في تواريخ النهضة العصرية ، فلم نذكره .

---

١) ملاحظة دقيقة عن حالَي الشعر . فانه اول مظهر لانحطاط الادب كما انه اول مظهر لنهضته .

٢) اخلاق ثياب : اي ثياب رثّة .

٣) الخِنْذيذ : الشاعر المجيد المُفاق .

فهرس

المعلم بطرس البستاني

حياته :
اصل اسرته
فتوّته
في بيروت

تأثير
تعليم النساء
المقدّمة ١
حالة النساء ٣
وجوب تعليمهنّ ٨
موادّ التعليم ٢
فوائد التعليم ٦
اضرار جهلهنّ ٢
النتيجة ٤

راب العرب
المقدّمة — شروط العلم ٢٥
علوم العرب بعد الاسلام ٢٨
حالة اللغة في ايام الخطيب ٣٢
وجوب الاصلاح ٣٤
ابتداء النهضة ٣٨
علوم العرب اليوم ٤٠

مآخذ

الجنان (١٤ [١٨٨٣] ٢٨٩ ؛ ٣٢١ ؛ ٣٢٧) المقتطف (٨ [١٨٨٣] ١)
دائرة المعارف: المجلد السابع ، ص: ٥٨٩ . . .
جرجي زيدان: تراجم مشاهير القرن التاسع عشر ، ج ٢ مصر ١٩١١ ، ص : ٢٥
الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩١٠ — في عدة مواضع خصوصاً ص : ١١٠ . . .
الفيكونت فيليب دي طرّازي: تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ١٩١٣ ج ١ ص: ٦٤ ، ٨٩ . . . ج ٢ ، ص : ١٠ ، ٣٢ ، ٤٥

K. T. Khairallah : *La Syrie, Paris, 1912 p. 49 ...*
Encyclopédie de l'Islam · *v. Al-Bustânî*

الروائع

سلسلة ابحاث في الادب ، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الثالثة

ظهرت كلها

في النثر

٢٢ — المعلّم بطرس البستاني : خطابان : تعليم النساء — آداب العرب
٢٣ — ولي الدين يكن : فصول منتخبة

في الشعر

٢١ — الشيخ ناصيف اليازجي : منتخبات شعرية
٢٤ — طرفة ولبيد : المعلقتان
٢٥ — زهير بن ابي سلمى : منتخبات شعرية
٢٦ — عمرو بن كلثوم ، والحرث بن حلزة : المعلقتان
٢٧ — عنترة : منتخبات شعرية
٢٨ — الخنساء : منتخبات شعرية
٢٩ — الحطيئة : منتخبات شعرية
٣٠ — النابغة : منتخبات شعرية

وسنبتدئ قريباً بسلسلة رابعة